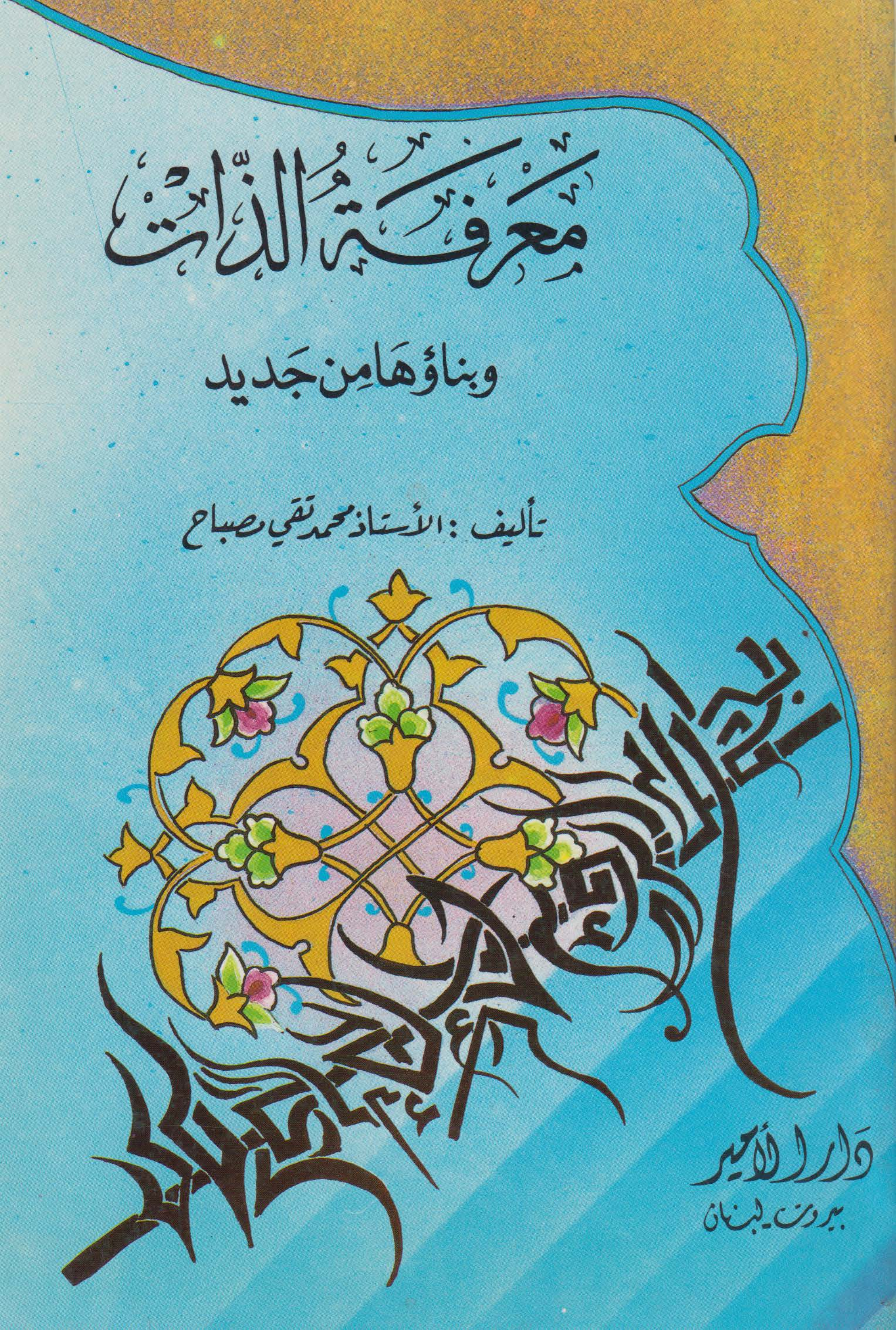
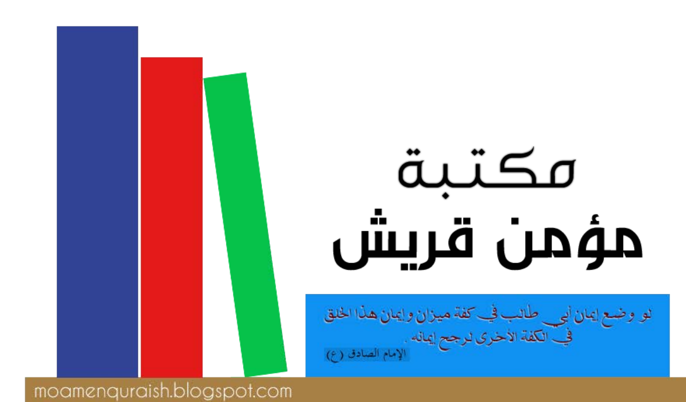


معرفة الذات
وبناؤها من جديد
تأليف : الأستاذ محمد تقي مصباح
دار الأمير
بيروت - لبنان



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


معرفة الذات
وبناؤها من جديد

مَعْرِفَةُ الذَّاتِ

وبناؤها مِن جديد

تأليف : الأستاذ محمد تقي مصباح

ترجمة : الشيخ محمد علي التسخيري

دار الأمير

بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى

١٩٩٢م

دار الأمير للثقافة والعلوم

طباعة - نشر - توزيع بيروت لبنان ص.ب. ١١٣/٥٥٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

يقـع الإنسان ـ من جهـات مختلفة ـ مـوضـوعـاً لعلوم مختلفـة : علم النفس ، وعلم الاجتمـاع ، والتـاريـخ ، والأخلاق ، والطب والفيزياء والأحيـاء ، فهذه العلوم يتنـاول كلٌّ منها الانسان من زاوية خاصَّة .

وما نرمي إليه هنا هـو البحث حول الانسـان من زاوية كونه موجوداً يقبل التكامل ، وسنتحدث عن أساليب الاستفادة المثلى من الطاقات الداخلية والامكانات الخارجية ، للوصول إلى السعـادة الحقيقيَّة ، عبـر التأمُّـل في وجودنـا ، ومعرفـة العـوامـل التي أودعت في الفـطرة ، لتسيـر بنـا إلى الهـدف الأصلي ، وكذلك عبر معرفة عناصـر الجذب نحـو الأهداف الانسانيَّة السامية ، والروابط التي تربـطنا بـالآخرين ، والتي

تمكننا ـ من خلال الاستفادة منها والسعي في تقويتها وتحكيمها ـ من تقوية أنفسنا وتهيئتها للتكامل والتّسامي .

ونسأله تعالى أن يعيننا على ان نخطو ـ في هذا الاتجاه ـ خطوة على طريق تكاملنا وتكامل الآخرين .

وعليه ، فموضوع بحثنا عبارة عن :

(الانسان من زاوية كونه موجوداً يقبل التّكامل)

وهدفه عبارة عن :

(معرفة الكمال الحقيقي وسبيل الوصول إليه) .

وأسلوبه عبارة عن :

(دراسة تأمُّلاتنا الداخليَّة للوصول إلى معرفة جديدة لمتطلَّباتنا ، وعناصر الجذب الموجودة في أعماقنا ، والتي تسير بنا نحو الكمال ، والعوامل التي تساعدنا في ذلك ، والظروف التي يمكن استغلالها للوصول إلى ذلك) .

وسنسعى إلى الاكتفاء ـ لإثبات ما نقول ـ بالمعطيات الوجدانيَّة ، والبراهين العقلية البسيطة غير المعقّدة ، مستفيدين من أوضح المعلومات وأكثرها اقناعاً لكشف

المجهولات . وقد نشير ـ عند الضرورة ـ إلى الأدلّة العقليَّـة والنقليَّة المعقّدة .

ضرورة معرفة الذات

من الطبيعي جداً للموجود الذي يحمل في فطرته حب الذات أن يعرف هذه الذات ، ويدرك كمالاته وسبل الوصول إليها ، فلا نحتاج للأدلَّة العقلية المعقَّدة أو التعبُّديَّة الشرعية لندرك ضرورة معرفة الذات .

ومن هنا ، فإنَّ أيَّ تغافل عن هذه الحقيقة ، وأيَّ انشغال بالأشياء التي لا تملك أيَّ دخل في الكمال والسعادة الانسانية ، أمر غير طبيعيٍّ وانحرافيٌّ بلا ريب ، ممّا يتطلَّب منّا البحث عن علَّة هذا الانحراف ، ومعرفة سبيل الخلاص من آثاره السلبيَّة .

والحقيقة ، أنّ كلَّ أنماط السعي الانسانيِّ ، سواء العلميُّ منها أو العملي ، إنّما يتم لضمان اللَّذات والمنافع

والمصالح للانسان ، ولـذا فانّ معـرفة الإنسـان نفسه وبـدئه ومنتهـاه وكذلـك كمالاتـه التي يمكن الوصـول إليها ، هـذه المعرفة مقدَّمة على كلِّ المواضيع ، بل إنه بدون معرفة حقيقة الانسـان وقيمته الـواقعية لا تبقىٰ أيّـة فائـدة وقيمـة للبحـوث الأخرىٰ .

إنّ تـأكيـد الأديـان السمـاويـة وقـادة الـدين وعلمـاء الأخـلاق على معرفـة النفس وكشف حقيقتهـا ، إنمـا هـو إرشـاد إلى هذه الحقيقـة الفطريَّـة والعقليَّـة ، فهـذا القـرآن الكريم يعتبر نسيان النفس من لوازم نسيان الله ، وأنه بمنـزلة جزاء لهذا الذنب العظيم ، فيقول تعالى :

﴿ ولا تكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا الله فَأنساهُمْ أنفُسَهُمْ ﴾[1] .

وفي موضع آخر :

﴿ عَـلَيْكُـمْ أنـفُـسَـكُـمْ لا يَـضُـرُّكُـمْ مَـنْ ضَـلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[2] .

وقد وجّه الأنظار إلى آياته ـ تعالى ـ في الآفاق والأنفس فقال :

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

﴿ سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أنفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ ﴾[3] .

وقد أولى ـ سبحانه ـ آيات الأنفس عناية خاصّة حين عبَّر تعالى بقوله :

﴿ وَفي أنفُسِكُم أفلا تُبْصِرونَ ﴾[4] .

فألقى باللَّوم على أولئك الذين لا يسعون لمعرفة الآيات الإلهية في أعماق وجودهم .

وقد أعطى النبيُّ الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ معرفة النفس أهمية فائقة ، وجعلها سبيل معرفة الله حيث قال :

(من عرف نفسه فقد عرف ربه) .

وقد نُقلت روايات كثيرة عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بهذا الصدد ، نقل منها المرحوم (الآمدي) حوالي (٣٠) روايةً في كتابه (غُرَرُ الحِكم) ومنها هذه الكلمات القصار :

---

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

(٤) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

(معرفة النفس أنفعُ المعارف) .

(عجبت لمن ينشد ضالّته وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها) .

(عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربّه) .

(غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه) .

(الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النّفس) .

وقد روي عنه (ع) قوله :

(كلّما زاد علم الرجل زادت عنايته بنفسه وبذل في رياضتها وصلاحها جهدَه)[٥] .

توضيحات ضرورية :

لمّا كنّا نستعمل في حديثنا هذا بعض التعبيرات التي تستعمل في مجالات أُخرى بمعان أُخرى قد تختَلف عن مواضع استعمالنا فإنه يجب الالتفات إلى التوضيحات التالية لئلّا نقع في الاشتباه :

أ ـ إننا نقصد من (معرفة الذّات) ـ كما أشرنا إليها ـ معرفة الانسان من زاوية كونه متوفّراً على استعدادات وطاقات تمهّد له سبيل التكامل الانساني ، ومن هنا فإننا لا نستغني

---

(٥) مستدرك الوسائل : ج٢ ، ص٣١٠ .

عن هذا البحث بمقدار ما يعلمه الواحد منا بنفسه علماً حضورياً ، كما أننا لا نقصد العلم الحضوري الكامل الذي يحصل للإنسان في أواسط سيره المعنوي ، حيث يشاهد الإنسان حقيقته دون أيّ حجاب ، لأنّ هذه الحالة من نتائج بناء الذات لا من مقدّماتها ، كما أنها لا تبحث عن معرفة أجهزة البدن ومكوناته وكيفية عملها ـ كما يبحث ذلك في علم الفسلجة ـ بل وحتى معرفة النفس وقواها الداخليَّة بالنحو الذي يبحثه علم النفس ، فإنّها ليست غايتنا ، وإن كنّا قد نستفيد من البحوث النفسيَّة المقطوع بها كمقدمات ومبادىء لبحثنا هذا .

ب ـ إنّنا نقصد من (بناء الذات) ـ وبشكل عام ـ دراسة الذات والاهتمام بها ، منح النشاطات الحياتيَّة شكلها وجهتها ، لا تحديدها وإيقافها ، وبعبارة أُخرى ، فإن الغرض من هذا البحث هو ، ان نعلم كيفية تنظيم مساعينا العلميَّة والعمليَّة ، وما هي الوجهة الصحيحة التي يجب توجيهها نحوها لِكيْ يؤثّر ذلك في وصولنا إلى الكمال الحقيقي ؟ وعلىٰ هذا ، فإنه لا يلزم من هذا البحث أن ننكر الحقائق الموضوعيَّة خارج الذهن ، أو ننكر قيمة معرفتها أو أيّ اتجاه مثالي غير إيجابي ، تماماً ، كما أن النّزعة البرجماتيَّة (النفعيَّة) القائمة على أصالة (مبدأ العمل المفيد للحياة

المـاديَّة الـدنيويَّـة) والتي هي من مظاهـر (الأومانيَّـة) هذه الإتجاهات لا يمكنها أن تبيِّن غاية هذا البحث ، بـل سنرى أنهـا تختلف عنها اختـلافاً كلّيـاً ، اللّهم إلّا أن تعطي بعض أنماط هذه الأفكار تفاسير تتضمَّن تصوّراً متعالياً سامياً ، وهو ما لم يقصده مؤسسو هذه الاتجاهات وأتباعها .

ج ـ إنّ المقصود من العودة إلى الـذّات ، والتأمُّـل في أعماقها ، والبحث عن أبعادها هنـا هو ، أن يعـرف الإنسان هدفه الأصلي وكماله النهائيَّ ، وكذلك مسيرة سعادته ورقيِّـه الحقيقي ، عبر التأمُّل في وجوده واستعداداته الداخليَّة وميوله البـاطنيـة ، ولسنـا نقصـد قـطع الـروابط الـوجـوديَّـة للذات بالآخرين ، وعدم أخذها بعين الاعتبار ، وإنكـار الإمكانـات التي يهيؤهـا المجتمع والتعـاون الاجتمـاعي لتحقيق التقـدُّم والتكامل الذاتي .

فالمقصود ـ إذن ـ من هذه التعبيرات ليس إلّا جـوانبها الإيجـابيَّـة ، فيجب أن لا نخلط بينهـا وبين (الفـرديَّـة) و(الباطنيَّة السلبيَّة) و(الأنانيَّة) و(عبادة الذّات) وأمثالها من التعبيرات التي نجدها في علم النفس أو الأخلاق وغيرهما ، والتي تتضمَّن معاني سلبية .

د ـ **هناك** ألفاظ أُخرى لها معـانٍ اصطلاحيَّـة متعدِّدة ، ولها استعمالات متفاوتة في العلوم المختلفة ، بل وقد تكون

لبعضها معانٍ متغايرة ، يستعمل كل معنى منها مذهبٌ خاصٌّ في إطـار علم واحد مثـل : العقـل ، والنفس ، والشهـود ، والحس ، والإدراك ، والخيال ، والقوة ، والطاقة ، والغريزة و . . . الخ .

والتقيُّـد باصـطلاح خاص في مثـل هذه الأمـور يوقـع السامع والمتكلِّم في ضيق لا داعي لـه ، ومن هنا فـإنه لكي نعيِّن المقصود من أحد هذه التعبيرات ينبغي أن نعيِّن المعنى من خـلال سيـاق الكـلام ، وعلى أولئـك الـذين يـأنســون اصطلاحاً عمليَّاً وفلسفيَّاً خاصاً ألاّ يحصروا أنفسهم في إطار ذلك الإصطلاح لئلاّ يبتلوا بالخلط والاشتباه .

الكمال

على الرغم من أن مفهوم الكمال واضح ، لا يحتاج إلى تعريف ، ولكنّا ـ ولئلّا نقع في الخلط في بعض الحالات ـ سنقدم توضيحاً له فيما يلي :

إنّ الكمال ـ بلا شك ـ صفة وجودية يتّصف بها الموجود ، ولكنّا عندما نقيس أمراً وجودياً ما إلى أشياء مختلفة فإنّا نجده كمالاً بالنسبة إلى بعضها ، في حين أنه لا يُعدُّ كمالاً بالنسبة لبعضها الآخر ، بل قد يُعدُّ نقصاً وتقليلاً في القيمة الوجوديّة لتلك الأخرى .

كما أن بعضه الآخر لا يمتلك ـ أساساً ـ أيَّ استعداد لبعض الكمالات ، فإن الحلاوة ـ مثلاً ـ تُعتبر كمالاً لبعض الفواكه كالكمثرى والبطيخ ، في حين يكمن كمال بعض

الفواكه في حموضتها أو طعمها . أو نقول إنّ العلم للانسان كمال ، في حين لا يمتلك الحجر والخشب أيَّ استعداد له .

وسرُّ الأمر هو أنّ أيَّ موجود يمتلك حدّاً ماهوياً خاصّاً به ، بحيث يتبدل إلى نوع آخر من الوجود إذا تجاوز هذا الحدَّ .

إنّ التغييرات الماهويَّة قد تتمُّ بعد تغيير شكل الجزئيات ، أو زيادة الذرّات وقلّتها ، أو بعد التغييرات الداخليَّة في تركيب الذّرة ، أو تبدُّل المادَّة إلى طاقة أو العكس ، كما أنها قد تتمُّ على الرغم من وحدة هذه التركيبات كلِّها ، فلو قسنا البذرة الصناعيَّة إلى البذرة الطبيعية وجدنا وحدة في التركيب الداخليِّ للبذرتين ، ولكن الصناعيَّة منها تفتقد القدرة على النمو رغم وحدة تركيباتهما .

وعلى أيِّ حال ، فإنّ أيَّ ماهيَّة تنسجم ـ بمقتضى طبيعتها ـ مع بعض الأوصاف ، وفيها استعداد قبول بعض الكمالات لا غير ، إلاّ أنّ حدوث ماهيّة جديدة لا يستلزم ـ دائماً ـ فناء الكمالات السابقة ، فإنّ الكثير من الموجودات تتقبّل حالات فعليَّة متعدِّدة ، كلٌّ منها يأتي في طول الآخر (بعده) مع الاحتفاظ بالكمالات والفعليّات السابقة ، وذلك كما نجد ان النباتات تحْوي الذرّات والمواد المعدنية نفسها بالاضافة للفعليَّة النباتيّة ، التي تأتي في طول توفُّر تلك

الذرّات والمواد ، وهكذا الأمر في الحيـوان والإنسان ، وفي مثـل هذه المـوجـودات ، من الممكن أن تكـون الكمـالات السابقة مساعدة ـ إلى حدٍّ ما ـ في حـدوث الكمالات التـالية الاسمى منهـا ، ولكنّهـا لا تقتضي ـ بـالضـرورة ـ أن يكـون ازديادها دائماً موجبا للكمالات الفعليّة الأخيرة ، أو أنّها ـ في الأقل ـ لا تزاحمها ، بل إننـا نجد في كثيـر من الحالات أنّ الـوصـول إلى بعض الكمـالات ـ التي هي مقتضى الفعليَّـة الأخيرة ـ يتوقّف على تحديد الكمالات السابقـة ، فإنّ كثـرة الأوراق والأغصـان تزاحـم عمليَّـة الإثمار الجيِّـدة لـلأشجـار المثمـرة ، وإن سمنة الحصـان الأصيل الشـديدة تمنعـه من الوصول إلى كماله اللائق به وهو سرعة الركض والجري .

وعلى هذا ، فالكمال الحقيقيُّ لأيٍّ موجـود عبارة عن الصفة أو الأوصاف التي تقتضيها فعليَّته الأخيرة ، أمّا الأُمـور الأُخرى ، فبمقدار تأثيرها في الوصول إلى الكمال الحقيقي ، تكون من مقدَّمات الكمال .

سلسلة الكمالات :

عندما نقارن شجرةً مع قطعة حجر أو كثيب من تـراب فإنا سنجد أنّ الشجرة تملك بالفعل قُوىً خاصَّة لا توجد في الحجر والتراب ، ورغم التشـابه بين ذرّاتهـا وجزئيّـاتها فـإن الآثار التي تنتجها الشجرة لا تولد من الحجر والتراب .

ونستطيع أن نعرض هذه الحقيقة بالنحو التالي : إنّ في الشجرة كمالاً ـ بالفعل ـ هو الصورة النباتيَّة ، وهي منبع ظهور الأفعال والآثار الخاصَّة بالنباتات ، كما أن النباتات تملك كمالات ـ بالقوَّة ـ لا تملك الجمادات استعداد الوصول إليها ، فإنّ قلم شجيرة مثمرة مستعدٌّ لأن يُنتج سلال الفواكه الحلوة ، الأمر الذي لا يوجد استعداده في الحجر والخشب .

ومن البديهي ، فإنّ النبات عندما يمتلك هذه الفعليَّة والقوَّة المذكورة فإنه ليس فقط لا يفقد الصفات الجسمانيَّة والقوى الطبيعيَّة ، بل إنَّه ـ بالاستعانة بها ـ يؤدّي أعماله ويطوي مسير تكامله ، فيمكن أن نستنتج من ذلك أنّ الموجود النباتيَّ يستخدم قواه الطبيعيَّة للوصول إلى كمالاته ، ومن الطبيعيِّ أنه يحتاج إلى هذه القوى ولكن إلى الحد الذي يستفيد فيه من هذه القوى لصالح كماله .

وكذلك الحيوان ، فإنه واجد للقوى النباتية بالإضافة إلى الحسِّ والحركة الإرادية ، اللَّذَيْن هما من لوازم الصورة الحيوانيَّة ، وعلى النحو نفسه نجده يستخدم القُوى النباتيَّة لتكامله الحيوانيِّ ، ويحتاج إليها بالمقدار الذي تؤثِّر فيه في وصوله إلى كماله الحيواني .

والإنسان أيضاً ـ بدوره ـ واجد لِلْقُوى الطبيعيَّة

والحيوانيَّة ، بالإضافة للقوى الناتجة من صورته الانسـانيَّة ، فهو يستخدم كلَّ القوى السـابقة لصـالح تكـامله الانساني ، بالمقدار الذي تؤثِّر في تحقيق هدفه ، ولكن ـ وكما رأينا كثرة الأوراق والأغصان مانعـة من تكامـل شجرة التفـاح ـ فإنـه لا يمكن جعل الاستفادة اللاّمحدودة من القوى النباتيَّة والحيوانيَّة مفيدة لتحقيق هدف التكامل الانساني .

نستنتج من هذا البحث بعض النتائج :

أ ـ يمكن تقسيم الموجودات المادية ـ حسب الكمالات الوجوديـة ـ إلى درجات ، ومن بين المـوجودات التي نـألفها نجـد الجمـادات في الـدرجـة السفلى ، ثمّ النبـاتـات ، ثمّ الحيوانات في الوسط ، ويقع الإنسان في الدرجة العليا .

ومن البديهي ـ في مثل هذا التدرُّج ـ أنّ الملحـوظ هو نـوع الكمال وقيمتـه ، لا حجمه ومقـداره ، ولذا فـلا مجال للاعتراض علينا بأنه لو كان الانسان أكمل الحيوانات فلماذا لا يمكنه أن يأكـل بقدر أكـل البقرة ويـركض كالغـزال ويفترس كالأسد ؟ تماماً كما لا يقال في سموِّ النباتات على الجمادات بـأنه لـو كانت الشجـرة أسمى من الحجر والتـراب فلماذا لا تمتلك الشجـرة وزن جبال الهمـلايا ؟ ولمـاذا لا تـوجـد في أعماقها معادن الذهب والنفط ؟

ب ـ إنَّ أيَّ موجود مـادي في درجةٍ أعلى من الـوجود

يمتلك القُوى الأدْنى من درجته ليستخدمها في سبيل تكامله .

ج ـ إن الاستفادة من القوى الأدنى يجب أن تكون بالقدر المفيد للوصول إلى الكمالات الأعلى ، وإلّا فإنها تعود سبباً للركود وتوقُّف السير التكاملي ، وقد تؤدّي إلى التراجع والهبوط أحياناً .

د ـ بملاحظة البحث السابق نستنتج أنَّ الكمال الحقيقيَّ لأيٍّ موجود عبارة عمّا تقتضيه آخر فعليّة له ، وإن كان هذا الكمال نفسه ذا مراتب ودرجات مختلفةٍ فإن اعداد التفاح لشجر التفاح كمال ولكنه ذو مراتب ، أما سائر الكمالات التي تختلف عن هذا الكمال اختلافاً ماهويّاً ـ وهي بالطبع في درجات أدنى منه ـ فهي لا تُعدُّ من كمالات هذا الموجود بل هي مقدَّمات ووسائل لكماله .

وعليه فيمكننا أن نقسم الكمال إلى قسمين : أصيل وآلي ، أو حقيقي ونسبي ، كما يمكننا أن نقول بوجود مراتب للكمالات الأصليَّة .

هـ ـ ولكي نعيِّن مقياساً للاستفادة من القوى الأدنى يلزم ملاحظة الكمال الحقيقيِّ الأصيل ، وبعبارة أخرى ، فإنه لا يمكن اعتبار الصفات الوجوديَّة الأدْنى مقدَّمات لكمال أو كمالات نسبيَّة إلّا إذا كانت مقدَّمات للوصول إلى الكمال

العالي الحقيقيّ ، ومن هنا يتأكّد لزوم معرفة الكمال الحقيقيّ للإنسان .

الحركة الاستكمالية وعواملها وشروطها :

إنّ التكامل والحركة الاستكماليَّة لموجود ما عبارة عن ، التغييرات التدريجيَّة التي تحصل فيه والتي تنتج أن يصل استعداده للوصول إلى صفة وجوديَّة (هي الكمال) إلى المرحلة الفعليَّة ، وهذه التغييرات تحصل بواسطة القوى المودَعة في خلقة الموجود القابل للكمال ، مع الاستفادة من الشروط والإمكانات الخارجيَّة .

فبذرة الحنطة عندما تستقرُّ تحت التراب ، ويتوفَّر لها الماء والهواء والحرارة والنور والشروط الأُخرى ، تنفلق ثم تبرز ساقاً وأوراقاً وسنابل ، مما ينتج حصول ما يقارب ٧٠٠ بذرة أُخرى ، وهذه التغييرات التي تحدث منذ البدء في بذرة الحنطة إلى حصول البذرات الـ٧٠٠ تسمّى اصطلاحاً بـ(الحركات الاستكماليَّة) كما تسمّى القوىٰ التي كانت كامنةً في البذرة ، والتي استطاعت بواسطتها امتصاص المواد اللّازمة ، ونفي المواد المضرَّة ، وتحول العناصر المجتذبة عبر تفاعلات خاصَّة إلى بذرات مشابهة لها تسمّى بـ(عوامل التكامل) ، في حين يسمّى الماء والهواء واللوازم الخارجيَّة الأُخرى بـ(شروط التكامل) .

ومن البديهي فإنَّ معرفة ميزان التكامل وبعبارة أُخرى سعة الدائرة الوجودية وحوزة كمالات موجودٍ ما وكذلك عوامل التكامل وشروطه ، يمكن أن تتم ـ عادة ـ عبر التجربة ، وإن لم يكن من الممكن نفي وجود سبيل آخر لمثل هذه المعرفة .

وهنا ترد بعض الأسئلة :

هل إن كلَّ الموجودات تقبل التغيير والتطوُّر ؟ أم أنه يمكن أن توجد بعض الموجودات التي نعرفها ، أو تلك التي يُحتمل وجودها ونحن لا نعرفها ، وهي لا تقبل التطوُّر والتحوُّل بشكل مطلق فلا يحدث فيها ذلك أبداً ؟

وهل إن أيَّ تغيير كان ـ سواء في الذات ، أو في العوارض والصفات ، أو في النسب والاضافات ـ هو تغيير حقيقي وواقعي ؟ أم أنه لا يمكن اعتبار التغيير في النسب والإضافات تغييراً حقيقيّاً ؟

وهل إنّ أي تغيير حقيقيٍّ يوجب الوصول إلى صفة كماليَّة ؟ أم يمكن أن تنتج حركة ما فقدان بعض الصفات الوجوديَّة ؟

كلُّ هذه الأسئلة تُطرح في محلِّها ، ولكن لما كان بحثنا لا يتوقَّف على الإجابة عنها فإنّا نتركها إلى مجالٍ آخر .

الحركة العلميَّة وغير العلميَّة :

في مثال بذرة الحنطة ، نجد أنَّ التغييرات الموجبة لتحول البذرة إلى بذرات مشابهة ليست مرهونة بالإدراك والتشخيص العلمي ، وكذلك التغييرات التي تحدث في البيضة إلى أن تنتهي لحصول الفرخ ، مع فرق بين هذه الحركة والحركة الاستكمالية للفرخ حتى أصبح دجاجة كاملة ، فإن هذه الحركة الأخيرة تتبع الإدراكات التي لو فقدها الفرخ لم يستطع أن يصل إلى كماله اللاَّئق به ، فلو لم يكن الفرخ يحسُّ بالجوع والعطش ، والبرد والحر ، ويميِّز بين الحبة والحجر والخشب ، والماء والنار ، فإنه ليس فقط لا يمكنه أن يتطوَّر وينمو ، بل إنه لا يستطيع أن يديم حياته ومن هنا نستنتج أنَّ الحركات الاستكماليَّة يمكن تقسيمها إلى نوعين كلِّيين : إدراكيَّة وطبيعيَّة ، أو علميَّة وغير علميَّة .

الإدراك الغريزي وغير الغريزي :

إن الإدراك الذي هو شرط للحركة الاستكماليَّة قد يكون ـ أحياناً ـ فطريّاً طبيعياً ، وإن كان الموجود نفسه لا يدرك وجوده بكلٍّ وضوح ، وذلك مثل الإدراكات الغريزيَّة الحيوانيَّة ، وقد يحصل تدريجيّاً وبالتعلُّم فيكون موضع الاطلاع الكامل ، كما في العلوم الاكتسابيَّة لدى الإنسان .

وهنا تنطرح بعض الأسئلة التي تجب الإجابة عنها في مجال آخر من قبيل :

هل تفتقد النباتات كلَّ أنماط الإدراك ؟ أم يمكن أن يوجد في بعضها نوع منها ؟

وهل إنّ كلَّ الإدراكات الحيوانيَّة غريزيَّة ؟ أم إن بعضها يمتلك نصيباً من الإدراكات الكسبيَّة ؟

وعلى فرض وجود الإدراك الاكتسابي في الحيوان فهل يوجد بينه وبين الإدراكات الانسانيَّة تفاوت ذاتي أم لا ؟

الحركة الاختيارية وغير الاختيارية :

قد تحصل الحركة التكامليَّة بشكل طبيعي لا إرادي ، عند اجتماع الشروط اللاّزمة لدى الموجود ، الذي يمتلك قوَّة كافيةً لتكامل خاص . وقد يتوقَّف حصولها على إعمال الارادة والاختيار ، وهذا ما نلاحظه بوضوح في نشاطاتنا الاختياريَّة ، ونميِّز بينها وبين الأفعال الطبيعيَّة واللاّإرادية الأُخرى بكلِّ وضوح أيضاً .

ومن البديهي ، أنّ مدى التكامل والتقدُّم في الحركات الاختياريَّة مرتبط بإرادة الموجود المتحرك واختياره ، وبعبارة أُخرى فإنّ عدم الوصول إلى الكمال المطلوب ليس معلولاً فقط لنقص الطاقات الذاتية ، أو عدم مساعدة الشروط

والامكـانات الخـارجية ، بـل قـد يستنـد إلى إرادة الشخص نفسه ، ولأن الانتخابات لاتحصل بـلا علم ووعي فإنّ حسن الانتخـاب مرتبط بالعلم والتشخيص الصحيح . وكلّما كانت دائـرة المعلومات أوسـع ، وإمكـانـات كسب العلوم اليقينيَّـة أكبـر ، فإنّ إمكـاناتِ الاستفـادة الصحيحة منهـا للتكامـلات الاختياريَّة سوف تكون أكثر وأوفر ، كما أنَّه كلَّما كان ميـدان التحـرُّك أوسع والشـروط الخارجيـة أكثر تنـوُّعاً فـإن الأعمال الاختيارية يمكن تأديتها بحرية أكبر .

ومن هنـا يحصل لنـا دليل واضـح على لـزوم معـرفـة الهدف ، ومعرفة السير الصحيح نحوه ، لأنـه ـ كما أشـرنا ـ يتوقَّف الاختيار على العلم والوعي ، والتكامل الإنساني ـ أو في الأقل قسط من هذا التكامل ـ هو اختياريٌّ بلا ريب .

وطبيعي أننا سنتحدث في ما يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ عن حدوث الإرادة ، والعوامل التي تؤثر في هذا الحدوث .

وهنـا يُطرح سؤال عن وجـود مـوجـودات أخـرى غيـر الانسان لها اختيـار الحركـة ، وعلى فرض وجـودها ، فهـل يوجد فيها ما هو أكمل من الإنسان ؟

ولكن من الواضح أن الإجابة بالسلب أو الايجاب عن مثل هذه الأسئلة ليس لها أيُّ تأثير في سير البحث .

معرفة الكمال قبل الحصول عليه :

من البديهي ، أنَّ معرفة الكمال الحقيقيِّ للانسان ـ بمعنى الإدراك الوجداني والعلم الشهودي به ـ إنما تتهيأ لأولئك الذين وصلوا إلى درجته .

ولكن لمّا كان الوصول إلى الكمالات الاختياريَّة يتوقَّف على العلم والوعي ، فإنه من اللاّزم معرفة مثل هذه الكمالات ـ بشكل ما ـ معرفة سابقةً لكي تقع موقع الشوق والإرادة ، فتحصل بالاختيار والانتخاب .

ولو كان سبيل معرفتها منحصراً بالحصول عليها لم يكن الحصول عليها ممكناً ، فالمعرفة التي نحتاجها في السابق ليست من قبيل المعرفة الشهوديَّة الوجدانية ، بل هي معرفة ذهنيَّة أو علم حصولي ـ كما في الاصطلاح ـ يحصل عن طريق البرهان ، والاستنتاج من المقدمات العقليَّة ، أو الاستنباط من الأُصول النقلية المسلّم بها ، والواقع ان هذا البحث يحتاج إليه المحقّقون الباحثون ، الذين يسعون لمعرفة الكمال ومعرفة طريق الوصول إليه ، أمّا الذي نال الكمال الحقيقيَّ فإنه لا يجد حاجة لمثل هذه البحوث .

وعلى هذا ، فإنّ توقع معرفة حقيقة الكمال الإنساني قبل الوصول إليه ـ بحيث نعرفه كما نعرف مدركاتنا

الوجدانيَّة ـ توقّعٌ لا محلَّ له ، ولا سبيل إلاّ سبيل الاستدلال للحصول على المعرفة الذهنية لا الشهودية ، وتعيين ميزاتها بمعونة العقل والنقل .

ومن الطبيعي فإنّا سنسعى لأن نختار مقدمات الاستدلال من أبسط المعلومات اليقينيّة والوجدانيّة وأوضحها ، لتكون النتيجة أوضح وأكثر اطمئناناً ، وتتوسَّع الفائدة ، وقد نشير إلى بعض الأدلَّة النقليَّة ، أو البراهين العقلية المعقدة .

هل يمكن معرفة الكمال الحقيقي للانسان بالتجربة ؟

يمكن أن يتصوَّر أحد أنه كما يمكن معرفة كمال شجرة أو حيوان عن طريق التجربة فإن من الممكن حلَّ هذه المسألة بخصوص الإنسان بمعونة التجارب العلميَّة ، أي يمكن دراسة أفراد كثيرين في أزمنة وأمكنة مختلفة ، وملاحظة الكمالات التي يحصلون عليها ، وحدودها القصوى وبالتالي معرفة شروط الكمال ، وسبيل الوصول إلى الكمال النهائي .

ولكنَّ أدنى تأمُّل يوضح أنّ الأمر ليس بهذه السهولة بخصوص الانسان ، ذلك .

أولاً : لأنّ النباتات والحيوانات ـ من حيث الكمالات الوجودية ـ هي في درجة أدنى من الإنسان ، ومن هنا ، فإنّ

كلّ انسان يمكنه أن يعرف كمالاتها ويدرسها ، ولكن الأفراد الذين لم ينالوا الكمال الحقيقيّ للانسان لا يستطيعون معرفة سنخ هذه الكمـالات ، ومَن هُمُ الواجـدون لها ، وهم ـ في هذه القضية ـ كالأطفال الراغبين في معرفة الكمالات الخاصَّة بـالأفـراد البـالغين ، ولا يمكن أن يسهم في ذلـك إلاّ نُخبـة وصلت ـ في الأقـل ـ إلى المراتب الأوّليـة للكمـال الحقيقيّ للانسان .

ثانياً : إنّ كمال أيّ نوع من أنواع النباتات والحيوان له حدٌّ معين يمكن تجربته ومعرفته بكلّ سهولة ، ولمّـا لم تكن هناك فروق بين أفراد نوع واحد منها خلال قرون ، من حيث نـوع الكمال والحـدّ النهائي لـه ، فإنـه بملاحـظة عدد منهـا ودراسته يمكن الاطمئنان إلى أنّ كماله النوعيّ هو ما أدرك لا غير ، فكمال شجرة التفّاح يكمن في إعطائها ثمـرة لها طعمٌ ولـونٌ ورائحةٌ خـاصَّة وفي حجم معيَّن وتهيِّىء سـائـلاً حلواً معطراً يسمّى (العسل) .

وطبيعي أنّـه من الممكن أن تكـون للتفّـاح والعسـل خصائص أُخرى ، ومنافع لم يتوصَّل البشر إليها تماماً ، ولكن مثل هذه الفوائد ـ أيّاً كانت ـ هي من صفات التفّاح والعسل ، التي كـانت تلك الشجرة أو النحلة تمتـاز بها خـلال قرون ، ولكن عندما نلاحظ الإنسان ـ هذا الموجـود العجيب المليء

بالأسرار ـ نجد أنّه على الرغم من صغره النسبيِّ في الحجم وشبهه في كثير من الأُمور المادية مع سائر الحيوانات فانه يمتلك خصائص تميِّزه عن غيره تماماً .

إنّه الانسان الذي ينكشف لنا ـ يوماً بعد يوم ـ جانبٌ من أسرار وجوده ، وتُعرَض لنا صفحة جديدة من فنونه الرائعة . . . إنّه الانسان الذي لم يتوقّف ـ من بدء خليقته إلى الآن ـ عن التحرُّك والتغير ، ليعرض ، كلَّ يوم ، هذه المظاهر المختلفة من العلوم والصناعات على مسرح العالم الواسع .

على أنّ هذا التقدُّم العجيب إنَّما هو من الثمار الماديَّة لهذه الشجرة المحيِّرة ، أمّا معرفة الثِّمارالمعنويّة فليست ميسّرة بمثل هذه السهولة ، وقد تكون العجائب الروحيَّة والمعنويَّة أعظم من العجائب الماديَّة .

ونحن نجد سالكي سبيل العالم المعنويِّ يبدون بعض الأُمور التي لا يفهمها الآخرون ، ويقومون بأعمال لا يمكن أن نفسِّرها بقوانيننا الماديَّة ، كما لا يمكن إنكارها مطلقاً .

ومع كلِّ هذا ، فهل يمكننا أن نقول إنّ معرفة الحدود الوجوديّة للإنسان ـ بالأسلوب نفسه الذي تُعرف به كمالات النباتات والحيوانات ـ أمر عملي ؟

وثالثاً : فإنّ ما يقبل التجربة ـ مباشرة ـ هو الأشياء التي تقبل الإدراك الحسّي ، أمّا الكمالات الروحيَّة والفضائل المعنويَّة فلا يمكن تجربتها بشكل مباشر ومعرفة موازينها ، ولو قلنا إنّ آثار الكثير منها ممّا يقبل التجربة إلى حدٍ ما فإنّ معرفة منابعها النفسيَّة التي انطلقت منها هذه الآثار وتقويم كمالها ممّا لا يقبل التجربة .

بملاحظة ما سبق ، فلا عجب إذا رأينا الفلاسفة والعلماء يختلفون حول تشخيص الكمال الحقيقي للإنسان .

آراء الفلاسفة حول كمال الانسان :

وبملاحظة الاختلافات الموجودة بين الفلاسفة والمفكرين في النظرة الكونيَّة فإنّ من الطبيعيّ أن توجد مواقف وآراء مُختلفة حول الإنسان ولكن دراسة كلٍّ تلك المواقف والآراء ، وعلاقاتها بالمذاهب المختلفة ، ليست بذات فائدة مهمَّة ، ولهذا فإنّا سنكتفي بذكر بعض الآراء الأساس فيها :

١ ـ إنَّ كمال الانسان يكمن في أكبر قدر من التمتُّع باللَّذات الماديَّة ، وللوصول إلى ذلك يجب الإستفادة من العلم والتكنولوجيا لاستثمار المنابع والثروات الطبيعيَّة ، لتحقيق حياة أكثر رفاهاً ولذةً وهذا الرأي مبنيٌّ على أصالة

المادة واللَّذة وأصالة الفرد .

٢ ـ إنّ كمال الانسان هو في حصوله بشكل جماعي على المواهب الطبيعيَّة ، وللوصول إليه يجب السعي في تحقيق رفاه كلِّ الطبقات الاجتماعيَّة ، وفرق هذا عن سابقه يكمن في أنه مبنيٌّ على أصالة المجتمع .

٣ ـ إنَّ كمال الانسان يكمن في رقيِّة المعنويِّ والروحي ، الذي يحصل بالارتياض والنضال ضد اللَّذات الماديَّة ، وهذا الرأي يقف في قبال الرأيين السابقين تماماً .

٤ ـ إنَّ كمال الانسان يتمثّل في رقيِّه العقليِّ ، الذي يحصل عن طريق العلم والفلسفة .

٥ ـ إن كمال الانسان يكمن في رقيِّه العقليِّ والأخلاقي ، الذي يحصل عن طريق تحصيل العلوم وكسب الملكات الفاضلة .

والرأيان الأخيران ـ كالرأي الثالث ـ يتنافيان مع أصالة المادّة ، في حين يفترق الثالث عنهما بأنّه ينظر للبدن كعدوٍّ تجب مكافحته وبالانتصار عليه يحصل الكمال الانساني أمّا الرأيان الاخيران فإنهما ينظران للبدن كوسيلة يستفاد منها للوصول إلى الكمال .

والفرق بين الرأيين الرابع والخامس واضح ، وإن كان

الرأي الخامس قد يُطرح كتفسير للرابع .

ومن الـواضح أنَّ هـذه الآراء والآراء الأخـرى التي لم نذكرها كلُّها مبنيَّة على أصول فلسفيَّة خاصَّة ينبغي أن تُدرس مقدماً ، ومتابعتها تحتاج إلى بحوث فلسفيَّة عميقة لا تنسجم مع هذا البحث ، لأننا أشرنا في المقدمة إلى أنّ أسلوبنا هـو الاستفـادة من المقـدَّمـات الـواضحـة الـوجـدانيَّـة ، وتـرك الاستدلالات المعقّدة التي تحتاج إلى مقدمات كثيرة ، لتكون الفائدة أكبر ، أي ليستفيد منه الأفراد الذين لا يملكون اطّلاعاً على المسـائـل الفلسفيَّـة والاستـدلالات النقليّـة ، ولكي لا نواجه تعصُّبات من قبل المخالفين .

ومن هنا فَلِكَيْ نعرف الكمال الحقيقيَّ للانسان نحاول ألّا نعتمـد في أدلتنـا على الأسس الفلسفيَّـة المعيَّنـة ، التي تقبلها بعض المذاهب دون غيرها ، أو الآراء الكلاميَّة المعيَّنة التي يؤمن بهـا بعض دون بعض ، بـل نشــرع بـالبحث من أوضح المعلومات وأبسطها حول الإنسان ، وبـديهي أنّ مثل هذا الشروع لا يعني أن لا نعارض أيّة نظرية فلسفيَّة ـ خلاف سيرتنا الاستنتاجيَّة ـ وان تكون نتيجة البحث مقبـولة من قبـل كلِّ المذاهب والآراء ، فإنّ مثل هذا الأمر ليس إلّا في حكم انتظار توافق النقيضين وهو محال بالضرورة .

الميول الفطرية واتجاهاتها

إنَّ للانسان غرائز وأحاسيس ، وعواطف وميولاً ، ودوافع وكيفيّات نفسانية ، ونشاطات وانفعالات نفسيَّة كثيرة ، وهي بالتالي تقع ـ بنحوٍ ما ـ موضعاً لبحوث الفلاسفة ، وعلماء النفس ، والمحلِّلين النفسانيِّين ، مما أنتج عديداً من النظريات والآراء ، حول معرفة حقيقتها وتصنيفها ، وتشخيص الأصيل من غير الأصيل منها ، وكيفيّة حصولها ونموِّها ، والعلاقة بينها وبين أعضاء البدن وخصوصاً شبكة الأعصاب والمخ والغدد المختلفة . . إلّا أنّ أسلوب بحثنا هذا لا ينسجم مع عرض تلكم الآراء ونقدها .

ولذا فنحن هنا ، وبدون أيَّة محاولة لتأييد أيِّ مذهب فلسفي أو نفسي أو تحليلي أو ردِّه ـ نحاول التركيز والتأمُّل في

بعض أهمِّ الميول الفطرية أصالة ـ في نظرنا ـ والسعي لدراسة المظاهر المختلفة لها ، وسيرها التكاملي ، وأنماط النشاطات التي يقوم بها الانسان لإشباع تلك الميول في الظروف والمراحل المختلفة من حياته ، لأننا بذلك قد نستطيع اكتشاف سبيل لمعرفة الكمال الحقيقيِّ والهدف النهائيِّ للانسان ، ذلك أنَّ الميول الفطريَّة هي من أشدِّ القوى الانسانية ـ التي أودعتها يد الخلقة في أعماق الإنسان ـ أصالة وعمقاً ، لكي ينطلق بدافع منها في تحرُّكه ونهضته وسعيه ، مستعيناً بالقوى الطبيعيَّة والاكتسابيَّة والإمكانات الخارجية ، وطاوياً طريق كماله وسعادته .

وعليه ، فإنَّ الوجهة أو الإتجاهات التي تعيِّنها هذه الميول يمكنها أن تهدينا ـ كالمؤشِّر المغناطيسيِّ تماماً ـ إلى الهدف والمسير النهائيِّ المطلوب .

ولهذا فإنه ينبغي أن نركِّز على هذه الميول ـ بكلِّ دقَّة وصبر وتحمُّل ـ فنتأمَّلها تماماً ، متجنِّبين أيَّ حكم سابق ، ورأي مرتجل سريع ، لكي نصل ـ بالتالي ـ إلى نتيجةٍ صحيحةٍ قطعيَّة ، من خلال تأمُّلاتنا الدقيقية ، فنحصل على مفتاح السعادة المنشودة .

الإدراك ومراتبه :

للانسان ميل فطريّ للمعرفة والإطلاع والإحاطة بحقائق الوجود ، ويبدو هذا الميل منذ أوان الصبا ، ولا يفارق الانسان حتى نهاية حياته .

إنّ تساؤلات الأطفال المتتابعة تدلُّ على وجود هذا الميل الفطريّ ، وكلما ارتفعت استعدادات الطفل وقدراته اتسعت تساؤلاته وتعمَّقت ، وكلَّما اضيفت إلى حصيلته الذهنيَّة معلومات أكثر طُرحت أمامه مجهولات أكثر ومسائل أخرى .

فالإتجاه العام للقوى الإدراكيَّة ـ التي تشكل وسائل لإشباع هذا الميل الفطريّ ـ يسير نحو الإحاطة العلميَّة الكاملة بعالم الوجود ، بحيث لا يخرج أيُّ موجود عن الدائرة الواسعة التي يسعى لها هذا الميل ، فلندرس ـ إذن ـ السير العلميَّ للانسان من نقطة شروعه ، ونتابعه خطوة خطوة لنرى إلى أين ينتهي به المطاف .

تبدأ معرفة الإنسان عن العالم من حواسِّه الظاهريَّة ، وارتباط أجهزة البدن بالأشياء التي تقع قباله ، ويقوم كلٌّ من هذه الأجهزة الحسيّة ، من خلال التفاعل الخاصّ مع الأشياء ، بإيصال بعض الآثار ـ من قبيل النور ، والصوت ،

والحرارة ، والرائحة والطّعم ـ إلى الأعصاب ، ومن ثمَّ إلى المخ ، وبهذا يدرك الكيفيّات والحالات المتعلِّقة بظواهر الأشياء الماديَّة الكائنة في مجال معيَّن أمامه .

إلّا أن الإدراك الحسّي ناقص وغير كاف لإشباع الميل الفطري الغريزي للاطلاع ومعرفة الحقيقة لدى الإنسان ، لأنّه **أولاً** : يتعلّق بكيفيّات معيَّنة من ظواهر الأشياء المحسوسة وأعراضها ، دون أن يستطيع شمول كلِّ الكيفيّات ، فضلاً عن شمول ذوات الأشياء وجواهرها ، أو شمول الأشياء اللامحسوسة ، **وثانياً** : فإنّ مجال عمل هذا الإدراك الحسّي محدود بظروف خاصّة ، فالعين لا تستطيع أن تبصر إلّا الأنوار التي تتراوح أطوال أمواجها بين ما لا يقلّ عن ٤٪ ميكرون ولا يزيد على ٨٪ ميكرون ، فلا يمكننا ـ لذلك ـ أن نبصر النور فوق البنفسجي أو ما دون الأحمر ، وكذلك فإنّ الأذن يمكنها أن تسمع الأصوات التي تتراوح ذبذباتها بين ٣٠ و١٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية لا غير ، وكذلك سائر الادراكات الحسية فإن لها شروطاً معينّة ، **وثالثاً** : فإنّ بقاءها قصير جدّاً من الناحية الزمانيَّة ، فالعين والأذن ـ مثلاً ـ يمكنهما أن تحتفظا بأثر النور والصوت خلال عُشر ثانية واحدة لا أكثر ، وبمجرَّد انقطاع ارتباط الجهاز الحسّي مع الخارج ينسدُّ باب المعرفة والادراك .

هذا وأن للأخطاء الحسيّة حديثها الذي يكشف عن عدم كفاية الادراكات الحسيّة بشكل أوضح .

إلّا أنّ سبيل المعرفة والإدراك لا ينحصر بالأجهزة الحسيّة ، إذ توجد في الإنسان ـ مثلاً ـ قوّة أخرى تستطيع ـ بعد انقطاع ارتباط البدن بالعالم المادي ـ أن تحتفظ بالآثار التي تسلّمتها منه بأسلوب خاصّ ، وتعكسها في مواقع الحاجة على صفحة الذهن المدرك ، كما أنّ للذهن قوّة أخرى تدرك المفاهيم الكلّية ، وتهيِّىء الذهن لحصول التصديقات والقضايا وتيسير التفكير والاستنتاجات الذهنيَّة ، سواء التجريبيَّة وغير التجريبيَّة .

ويستطيع الإنسان ـ بواسطة هذه القوى الداخلية ـ أن يوسِّع من دائرة إدراكاته ، ويستنتج بعض النتائج من تجاربه وإدراكاته الفطرية والبديهيَّة ، وإنّ تقدم الفلسفة والعلوم والصناعات رهين هذه القوى الباطنيَّة العقليَّة ، مع ملاحظة التفاوت بين الفلسفة والعلوم الأخرى ، إذ في العلوم ينصبُّ البحث عن خواصِّ الموجودات وآثارها ، للاستفادة منها في تحسين المعيشة ، في حين ينصبُّ الهدف الأصليُّ في الفلسفة على معرفة ماهيّات الأشياء ، والروابط العلية والمعلولية لها .

وواضحٌ أن المعرفة الكاملة لموجود ما لا تتمُّ بدون

معرفة علله الوجوديَّة ، أو كما عبرَّ الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه (برهان الشفاء) وشرحه شرحاً وافياً قال : (ذوات الأسباب لا تُعرف إلّا بأسبابها) .

ولأنّ هذه المسيرة في إطار البحث عن العلل تنتهي إلى ذات الباريء (تعالى) فيمكننا أن نستنتج أن السير العقلي للانسان ينتهي إلى معرفة الله تعالى .

وقد تصور الكثير من الفلاسفة أن التكامل العلمي للإنسان ينتهي إلى هذا الحدّ ، ومن هنا تصوّروا أنَّ الكمال الانساني ـ أو بتعبير أدق ـ الكمال العلميَّ للانسان ينحصر في المعرفة الذهنيَّة الكاملة لعالم الوجود ، إلّا أن التأمُّل الأعمق في متطلَّبات الفطرة يوضح أن غريزة طلب الحقيقة في الإنسان لا تقنع تماماً بهذا الحدِّ من الإدراك ، بل تتطلب المعرفة العينية والادراك الحضوري والشهودي لحقائق الوجود ، ومثل هذا الإدراك لا يحصل بواسطة المفاهيم الذهنيَّة والبحوث الفلسفيَّة .

إنّ التصوُّرات والمفاهيم الذهنيَّة ـ مهما اتسعت وتوضَّحت ـ لا تستطيع أن ترينا الحقائق العينيَّة ، ويبقى الفرق بينها وبين الحقائق الخارجيَّة نفسها كالفرق بين مفهوم الجوع والحقيقة الوجدانيَّة له .

ان المفهوم الذي نملكه عن الجوع هو تلك الحالة التي نحسُّ بها عند احتياج البدن للغذاء ، أمّا إذا لم يحس الإنسان بمثل هذه الحالة فإنّه لا يستطيع الإحساس بها عن طريق هذا المفهوم ، كذلك الفلسفة فإنها تستطيع أن تعطينا مفاهيم حقائق الوجود من الله إلى المادة ، إلاّ أن معرفة الحقائق العينيَّة وشهودها يختلف كثيراً عن هذه المفاهيم ، وإن الأمر الذي يروي لهفة الغريزة لطلب الحقيقة بشكل كامل هو العلم الحضوري والادراك الشهودي للحقائق العينية ، اللازم لإدراك مقوماتها وارتباطاتها الوجوديّة ، ومتى ما شوهدت كلُّ الموجودات الامكانيَّة على شكل تعلُّقات وارتباطات بالله القيّوم المتعال فإنَّ كلَّ المعلومات العينيَّة ترجع - في الحقيقة - إلى العلم بحقيقة مستقلّة أصيلة ، ويكون كلُّ شيء ظلاً أو مظهراً لها .

القدرة ومظاهرها :

ومن الميول الفطرية للانسان الميل للقدرة والتسلُّط على الموجودات الأخرى ، ويبرز هذا الميل من أوان الطفولة ، ويسير مع الإنسان حتى نهاية حياته ، طبعاً مع ملاحظة الفروق التي ينتجها اختلاف السنين وفصول الحياة والظروف الخارجية في متعلقات القدرة هذه ، تحريكات الرضيع السليم الرتيبة ليديه ورجليه ، والتحرك الذي لا يقبل

التعب والكلل للطفل ، كلُّها علامة على هذه الحاجة الفطريَّة ، ثمَّ تتسع دائرة ما يتطلّبه من سيطرة ، وتمتدُّ إلى ما لا نهاية له .

ويتمُّ العمل والاستفادة من الطاقة وبسط القدرة في بادىء الأمر بواسطة الأعصاب الحركيَّة وعضلات البدن وبالاستناد إلى القوى الطبيعيَّة لا غير ، وهذه الحركات المتابعة للطفل نفسها تساعده بمقتضى الغريزة على تقوية نفسه ، وشيئاً فشيئاً تقوى عضلاته ، وتستعدُّ للقيام بأعمال أكبر وأصعب ، إلى أن يصل إلى أوج قدرته البدنيّة وشبابه ، ثم تبدأ مرحلة الركود والتوقُّف في هذا المجال ، ثم مرحلة الضعف والشيخوخة ، حيث تبدأ قواه البدنيَّة بالتحلُّل ، إلّا أن الميل الشديد للتسلُّط في أعماق الإنسان لا يخبو مطلقاً .

والانسان في سبيله للاقتدار والتسلُّط بالقوى الطبيعية ، بل يسعى بمعونة العلوم والصناعات لاختراع وسائل أفضل للتسلُّط وتسخير الكائنات لصالحه ، وواضح جداً الدور الذي لعبته الاكتشافات والاختراعات العلميَّة ـ خصوصاً في العصور الأخيرة ـ وما ستلعبه في مجال إشباع هذه الميول الفطريَّة .

بل إن الانسان لم يمتنع حتى عن استخدام طاقات أبناء نوعه الإنساني في سبيل تحقيق تسلُّطه ، إذ عمل بمقتضى قدراته وإمكاناته على استخدام الآخرين واستثمارهم بشتى

السبل والوسائل .

على أن هذا السعي المحموم للحصول على المواقع والمناصب الاجتماعية والاعتباريَّة على صعيد الشعب الواحد وعمل شعب ما على استعمار الآخرين واستعبادهم وجعلهم تحت نفوذه ، إنما يعبّر عن تطبيق لهذا الميل ، إذ أن تطبيقه قد يتَّخذ شكلاً صحيحاً ومعقولاً ، وقد يتَّخذ شكل التجاوز على حقوق الآخرين بأشكاله المختلفة : كالاستعمار والاستثمار الظالم .

ثم إن هذا السعي المتزايد لتحقيق القدرة الكبرى لا يتوقَّف عند هذا الحد ، بل يحاول شمول القوى اللّامحسوسة والميتافيزيقية . . . الأمر الذي توضحه هذه الفروع العديدة للعلوم الغريبة ، وتسخير الجنّ والأرواح وأنواع الرياضات النفسيَّة ، مما يكشف عن السعي العجيب لتوسعة القدرة وبسط نفوذها على مختلف الحقول .

ولكن وعلى فرض حصول القدرة لتسخير كلِّ القوى المحسوسة وغير المحسوسة ، هل يصل الإنسان إلى حدِّ كماله ، وتشبع في أعماقه حاجته وعطشه إلى القدرة بشكل كامل ؟

وإذا كانت هذه القوى ـ مهما كانت متنوعةً وعظيمةً ـ

محكومة لقوى أعلى وسلطةٍ أوسع فهل يمكننا أن نتصوَّر أنّ الميل الانساني اللاّنهائي قد أشبع تماماً ؟

إنّ من الواضح أنّ هذا العطش الفطريّ لن يُروىٰ تماماً إلّا إذا اتصل الانسان بمنبع قدرة لا نهائية وإلّا فإنّ سعي الانسان الطموح سيبقى مستمراً بلا نهاية .

الحب والعبادة :

يوجد في الإنسان ميل فطريٌّ آخر ليس هو من سنخ المعرفة والقدرة ، بل هو ميل للتجاذب والاتصال الوجودي والإدراكي ، ولَمَّا لم يكن هذا الميل معروفاً لدى علماء النفس والمحلّلين النفسانيّين ، فإنهم لم يبحثوا حوله بالمقدار الكافي ، ولذا فان توضيحه ليس بالأمر السهل .

إنّ أيّاً منّا يجد في نفسه ميلاً وتعلّقاً بشيءٍ ما يجذبه إليه كما يجذب المغناطيس المعادن إليه ، ولهذا الجذب مراتب وآثار مختلفة ، وقد يصل اختلاف المراتب إلى حدٍّ يوجب التشكيك في وجود جامع بين هذه المراتب ، وهل إنها من ماهيَّة واحدة أم لا ؟

وإنّ أوضح تجلٍّ للمحبة الفطريَّة يكمن في الأمّ ، حيث تغرق في عالم اللّذة عندما ترى طفلها ، وتتلقفه بالأحضان وتلاعبه وتراقبه ، إن حبَّ الأم هو من أروع تجلّيات

المحبَّة الفطريَّة التي ألهمت مظاهرها ـ على مدى التاريخ ـ الكتاب والشعراء فأنتجوا في ذلك أروع النتاج ، وهكذا محبَّة الأب لولده .

وعلى غرار هذا الحبِّ توجد روابط الحبِّ ـ أيضاً ـ لدى الابن تجاه أبويه ، وبين الإخوة والأخوات وسائر أفراد العائلة التي تترابط فيما بينها بوشائج طبيعيَّة ، وكمظهر آخر للحبِّ والميل الفطري ما نجده بين أبناء النوع الواحد ، كالترابط الانساني العام الذي يشدُّ الناس بعضهم إلى الآخر ، حيث تشتدُّ هذه الرابطة كلّما أضيفت إليها عناصر أخرى ، كرابطة المدينة الواحدة ، أو الجوار ، أو وحدة السن ، أو الزواج ، أو اتحاد المعتقد والمسلك وغير ذلك .

كما أن هناك تجلياً آخر لهذه المحبّة يبدو في ميل الانسان لبعض الأشياء التي يستفيد منها في حياته المادية ، والتي لها دخل في تأمين حاجاته مثل : المال والثروة واللباس والمسكن .

ومن تجلّياته شوق الانسان وميله بالنسبة للكمال والجمال والأشياء الجميلة ، وخصوصاً الأناسي ذوي الحظ من الجمال ، فالإنسان يميل للأشياء التي تروي ظمأه للجمال ، وتألفها روحه ونفسه .

وعلى هذا النسق نلاحظ الميل الانسانيّ لأنماط الجمال المعنوي مثل : جمال المفاهيم والتشبيهات ، والاستعارات والكنايات ، وجمال الألفاظ والعبارات النثريَّة والشعريَّة التي يعشقها أرباب الذوق المرهف .

وكذلك من مثل الكمال والجمال الروحي والأخلاقي الذي يهيم فيه علماء النفس وعلماء الأخلاق ويؤكدون مجالاته ، وهكذا الجمال العقلاني مثل : روعة التنظيم في هذا الوجود الذي يسحر ألباب الحكماء والفلاسفة ، أو الجمال الوجودي الذي يدرك عبر الشهود العرفاني ، حيث يصل الأمر إلى درجة لا يعني الوجود فيها سوى الجمال : ﴿ **ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ** ﴾ .

وكلما قويت حصَّة الموجود من الوجود ، وتأصَّل الوجود فيه كانت مشاهدته وجماله أشدَّ إعجاباً وأروع تأثيراً .

وبعبارة أخرى ، فإنَّ أيَّ موجود يعبِّر ـ مقدار سعته الوجوديَّة وقابليَّته ـ عن إشراق للنور الإلهي ، وكلما تكاملت حصته الوجودية أمكنه أن يعرض إشراقاً أشد وروعة أعظم .

وبشكل عام يمكننا أن نتصوَّر للحبِّ ـ من حيث الشدّة والضعف ـ مراتب ثلاث هي :

الأولى : المرتبة الضعيفة التي تقتضي القرب إلى

المحبوب في الظروف العادية ، دون أن يصحب ذلك أيُّ نوع من أنواع التضحية والإيثار .

الثانية : المرتبة الوسطى التي تتضمَّن ـ بالاضافة لإرادة القرب من المحبوب ـ نـوعاً من التضحيـة في سبيله ، ولكن إلى المستوى الذي لا يتنـافى مع المصـالح الكلِّيـة الأساس للشخص .

الثالثة : مرتبة الإعجـاب العميق التي لا تمنع الانسـان من تقديم أيِّ نوعٍ من أنواع التضحية في سبيـل المحبوب ، فـلا لـذّة لــه إلاّ في اتبـاعــه وتحقيق رغبـاتــه في مختلف الحـالات ، بـل يعتبـر كمـال التـذاذه في تعلُّقـه وارتبــاطـه الوجودي ، وبالتالي في الفناء ونسيان النفس أمامه ، ولذا فهو يعيش في غـاية اللّذة عنـدما يخضـع لمحبوبـه ، ويقـدِّم لـه فروض الولاء ، فتلك هي آية هذه المـرتبة من المحبَّـة التي تؤدي بالإنسان لأن يقدّم إرادة المحبوب على أيِّ شيءٍ سواها بلا أيِّ تحفظ .

ومن الواضح أنّ المحبـة والشوق بـالنسبة لشيءٍ كلَّمـا تـأجَّجت واشتـدَّت كـانت اللذة الحـاصلة من تحقيق ذلــك الشيء والوصول إليه أكبر وأشـد ، ومن جهة أخـرى نجد أنّ كمـال اللذة يرتبط بمستـوى المـطلوبيَّـة والقيمـة الـوجـوديـة للمحبوب . . . إذن فلو أن شخصاً امتلك أشدَّ أنواع الحبِّ

بالنسبة لأعظم الموجودات وأكبرها قيمة ، وأدرك هذه القيمة الوجودية بدقة فإنه ـ بالوصول إلى محبوبه هذا ـ يكون قد حاز أروع اللذات ، فاذا افترضنا أن هذا الوصول غير محدود بالظروف المكانيَّة والزمانيَّة بل كان وصولاً دائماً وفي أيٍّ مكان فإنّ هذه الحاجة الفطرية سوف تكون قد أشبعت بشكل تام ، ولم يبق في إشباعها أيّ قصور .

وعلى هذا :

فإنّ هذا الميل الفطريَّ اللانهائيَّ يتَّجه نحو حبٍّ متأجّج ، لمحبوب كامل جميل كمالاً وجمالاً مطلقاً ، له أشدّ الروابط الوجودية بالانسان ، بحيث يمكن للانسان أن يرى وجوده هو قائماً به ، وفانياً فيه ، ومتعلقاً تمام التعلقُ به ، وبالتالي فهو يحقِّق الوصول الحقيقيَّ إلى محبوبه ، فلا يستطيع أيُّ شيء أن يفصل بين هذين الحبيبين .

أما محبَّة أيٍّ موجود آخر لا يملك هذه الأمور فإنها لا يمكن أن تشبع هذا الميل الفطري إشباعاً نهائياً ، وإنما يقترن بها الهجران والهزيمة ، والفراق والعذاب .

اللذة والكمال

يدرك كلُّ إنسان ـ بأدنى تأمُّل في وجوده وبكلِّ وضوح ـ أنَّه بفطرته يبتغي اللَّذة والراحة والسعادة ، ويهـرب من الألم والعذاب والشقاء وهكذا ينصبُّ سعي الإنسان ـ الذي لا يكلُّ في حياته ـ عن الحصول علىٰ لذّات أكثر وأقوى وأكثر دواماً ، والفرار من الآلام وأنواع العذاب والأمراض ، أو التقليل منها في الأقل ، وعند التزاحم فإن الإنسان يقارن بين الأمـرين ، فيتقبَّـل الألم القليل في سبيـل الخلاص من العـذاب والألم الشديد ، ويضحّي باللَّذة المحدودة في سبيل الأشد والأكثـر دوماً .

كمـا أن مقتضى العقل والفـطرة الإنسانيَّـة أن يتحمَّـل الإنسـان عذابـاً قليلاً للوصـول إلى لذَّة كبـرى ودائمة ، وان

يغضَّ النظر عن لذَّة قليلة للخلاص من العذاب الكثير . . . وإنك لتجد كلَّ التصرُّفات العقلائيَّة قائمة على أساس من هذا المعنى . . أمّا ما يحدث من اختلاف في التصرُّف بين الأفراد في ترجيح بعض اللّذات والآلام فهو نابع من اختلافهم في التشخيص ، أو خطئهم في الحساب ، ومن عوامل أخرى سنتحدث عنها فيما بعد .

فاللذة إذن ـ من جهة ـ دافعٌ للنشاط والسعي الحياتيّ ، ومن جهة أخرى هي نتيجة وثمرة لهذا النشاط ، ومن جهة ثالثة يمكن أن نجعلها كمالاً للموجودات ذات الشعور والإدراك ، باعتبارها صفة وجوديَّة يمتلك الأفراد استعداد الحصول عليها .

وإنّ العمل الذي يؤدِّي إلى حصول لذَّة والخلاص من ألم ما ، يقع موقع الارادة الإنسانيَّة ، فهو ـ أي الإنسان ـ يحبُّ كلَّ ما يلتذُّ به ، وهكذا يأتي تعبير الحبِّ بالنسبة للعمل والصفات المرغوبة ، ومن هنا تتوضَّح العلاقة بين اللذَّة ، والإرادة ، والحب .

وينبغي أن نلتفت إلى أنَّه قد يركِّز الإنسان على لذَّة معيَّنة يحتاج الوصول إليها إلى مقدِّمات كثيرة ، ومن هنا فهو يصمِّم على القيام بأعمال يمكن أن يكون كلٌّ منها ـ بدوره ـ مقدَّمة للآخر ، ولكنَّ الواقع هو انّ الإرادات المتعلِّقة بهذه

الأعمال أشعَّة من تلك الإرادة الأصليَّة ، التي تعلقت بالعمل الأصليِّ ، الذي ركَّز عليه الإنسان من أوَّل الأمر .

وهكـذا ، فالحبُّ الأصيـل يتعلق بموجـود يسعى إليـه ويرغب إليه بالأصالة ، وفي ظلِّ ذلك تحصل له رغبات جزئيَّة وفرعيَّة إلى مقدَّماته ومتعلَّقاته ، حيث يحقِّق الوصول إلى أيٍّ منهـا لذَّة فـرعيَّة ونسبيَّـة بمقدار ارتبـاطـه بـذلـك المـطلوب الأصيل .

وقد رأينا ـ في ما سبق ـ أن الكمال الحقيقيَّ لـلإنسان هو آخر المراتب الوجـوديَّة ، وأعلى الكمـالات التي يمتلك القدرة على الوصول إليها .

أمّا الكمالات الأخرى فهي تمتلك صفة مقدَّميَّة ، وهي كمالات آليَّة نسبيَّة ، وترتبط مقدميتَّها بمقدار تأثير أيٍّ منها في إيصـال الإنسـان إلى كمـالـه الحقيقيّ ، وان كـان الكمـال الحقيقيُّ نفسه له مراتب مختلفة .

وعلى هذا ، فإنَّ المطلوب الأصيل للإنسان هو الكمال الحقيقيُّ ، أما مطلوبيَّة الأشياء الأخرى فهي فرعيَّة تتبع مقدار أثرها في حصول الكمال الحقيقيّ .

وكذلك فإن اللذَّة التي يطلبهـا الإنسان بـالأصالـة هي اللذَّة التي يملكهـا الكمال الحقيقيُّ ، في حين تمتلك سـائر

المقدَّمات لذّات فرعيَّة نسبيَّة ، ذلك أننا قلنا آنفاً إن اللذَّة الأصيلة هي تلك التي تحصل من الوصول للمطلوب الأصيل .

وعليه ، فمعرفة الكمال الحقيقيِّ تستلزم معرفة اللَّذيذ الأصيل ، وكذلك العكس ، حيث تتطلَّب معرفة اللَّذيذ الأصيل معرفة الكمال الحقيقيِّ ، ولأنَّ اللَّذيذ الأصيل يملك أسمى لذَّة ممكنة للإنسان ، فإنَّ معرفة اللذيذ الأصيل تلازم معرفة الشيء الذي يمكنه أن يقدّم للإنسان أكثر اللذات وأسماها وأكثرها دواماً ، ومن هنا فلو عرفنا أكثر الموجودات منحاً للَّذة عرفنا اللَّذيذ بالأصالة والكمال الحقيقيَّ للإنسان .

فينبغي ـ إذن ـ التأمُّل في حقيقة اللَّذة وسبب اختلاف مراتبها ، لكي نعرف أسمى اللَّذات الإنسانيَّة وأشدَّها دواماً .

فما هي اللّذة ؟ وما هي أسمى اللَّذات الإنسانيَّة ؟

إنّ ما نراه في وجودنا ونعبِّر عنه باللَّذة هو حالة إدراكيَّة ، تحصل لدينا عند حصولنا على شيء نهواه ونرغب فيه ، وذلك حين نعلم أنه هو المطلوب كما نعلم ونلتفت إلى حصوله ، إذن فإنا إذا لم نكن نعلم بأنَّ ما حصلنا عليه هو المطلوب فإنَّ هذا الحصول لن يترك لذَّة في وجودنا ، وكذلك إذا لم نكن نعلم بحصوله لدينا فإنّا لن نلتذَّ بشيءٍ .

وعليه ، فحصول اللَّذة يتوقَّف ـ بالإضافة لوجود الشيء المطلوب والشخص الملتذِّ ـ على امتلاك قوّة إدراكيَّة خاصَّة يمكن أن يُدرَك بها حصول الشيء المطلوب ، وكذلك يتوقَّف على معرفة المطلوب والالتفات لحصوله ، أمّا المراتب المختلفة للذَّة فهي ترتبط إمّا بالقوَّة المدركة ، وإمّا بنوع المطلوبيَّة ، وإمّا بالتفات الإنسان إليها .

فمن الممكن أن يكون التذاذ شخص بأكلة معيَّنة أكثر منه لدى شخص آخر ، وذلك لأنَّ الحاسَّة الذائقة لديه أقوى وأسلم ، كما يمكن أن يلتذَّ إنسانٌ بطعام أكثر من غيره ، لأنه كان مرغوباً لديه أكثر ، وقد يكون التذاذ شخص ما بطعام معيَّن حال إلتفاته الكامل أكثر منه حال فقدان هذا الالتفات وتوجُّهه للأشياء الأخرى ، وقد يختلف التذاذ تلميذَين بمعرفة معيَّنة نتيجة اختلاف تصوُّرها عن هذه المعرفة المعيَّنة وضرورتها ومدى تأثيرها في كمال الإنسان وصلاحه .

كما أنَّ من الواضح أنَّ دوام اللذَّة مرتبط بدوام ظروف تحقُّقها ، فإذا فنيت ذات الشيء المطلوب ، أو تغيَّرت حالة المطلوبيَّة ، أو تغيَّر تصوُّر الشخص ، أو اختلفت حالة التوجُّه إليها ، فإنَّ اللذَّة المفروضة سوف تتغيَّر بلا ريب .

وهذا التعدُّد الذي نلاحظه بين الذات الملتذَّة والشيء اللّذيذ وشرائط حصول اللذَّة نجده في عموم اللَّذات

المتعارفة ، إلاّ أنّنا قد لا نجد هذا التعدُّد في حقيقة اللذَّة في حالات أخرى ، بحيث نستعين بنوع من التحليل المفهوميّ ، حتى يمكننا استعمال كلمة (اللذَّة) فيها ، وهذا ما نجده في حالتي : العلم ، والحبّ .

فمثلاً يلزم ـ لكي يحصل العلم ـ أن تكون هناك ذات عالمة ، وشيءٌ معلوم ، وصفة للعالم تُدعى (العلم) ، إلاّ أنَّ المعنى التحليليَّ لذلك هو الذي يمكن أن يصدق في حالة (العلم الحضوريّ) للنفس بوجودها ، أو علم الله تعالى بذاته بالرَّغم من أنّه لا يوجد أيُّ تعدُّد بين العلم والعالم والمعلوم .

وكذلك المفهوم المتعارف للحبّ فإنَّه يستلزم فرض ذات محبَّة وشيء محبوب وحالة حبّ ، إلاّ أنّه في حالة حبِّ الذات لا يوجد مثل هذا التعدُّد الخارجي .

وعلى هذا ، فيمكننا أن نجد مصاديق للذَّة لا تحتاج إلى التعدُّد المذكور ، فمثلاً يمكننا أن نقول في المجال الإلهي : إن الذات المقدَّسة ملتذَّة من ذاتها بذاتها ، وإن رجَّح بعض العلماء أن نعبِّر في هذا الخصوص بالبهجة بدلاً من اللذّة ، وكذلك الأمر في المجال الإنساني ، فإنه يمكن القول بأنَّ الإنسان يلتذُّ بوجوده ، بل إن ذاته هي أحبُّ الأشياء إليه ، فإنَّ اللذَّة التي تحصل لديه من مشاهدة ذاته مع

الالتفات لمطلوبيَّتها هي أكبر من أيٍّ لذَّة أخرى ، بل إنَّ كلَّ اللَّذات الأخـرى هي ظـلال من اللذَّة التي تحصــل لـديــه بـوجوده ، لأنّهـا تحصل على أسـاس الوصـول إلى شأن من شؤونه وكمال من كمالاته .

أمّا ما نراه من عدم الالتذاذ في الحالات المتعارفة فهو على أساس عدم الالتفات ، ومتى ما تـوجّه إلى ذاتـه بشكل كـامل ، وانصـرف عن الأشيـاء الأخـرى على أثـر العـوامـل الخارجية ، كالأخطار الكبرى ، أو على أثر الرياضـة النفسيَّة وتمركز الإدراك ، فإنَّه ستحصل لديه لذَّة غير عاديَّة بلا ريب ، فلو صـدر حكم بـإعـدام شخص وبشكـل قـاطـع لا يقبـل النقض ، ثمَّ التفت إلى انتفاء الحكم فإنَّه ستحصل لديه لذَّة لا يمكن مقارنتها بأيَّة لذَّة أخرى .

ومن الطبيعي أنَّ اللذَّة في هذا المثال ـ وإن كانت ترتبط بعـودة الحياة الـدنيويَّـة بعد اليـأس منها ـ ولكنَّهـا من زاويـة توضيحها لشوق الإنسان إلى الحياة والالتذاذ بـوجوده مفيـدة لبحثنا هنا .

والحاصل :

إن اللذّة التي تحصل لدى الإنسان إمّا أن تكون نابعـة من وجوده ، وإمّا من كماله ، وإمّا من الموجودات التي يحتاج

إليها ، ويرتبط بها بنحو من أنحاء الارتباط الـوجوديّ ، فـإذا استطاع أن ينظر إلى وجوده على أساس أنه وجود تعلُّقي يرتبط بموجود تنتهي إليـه كلُّ الارتبـاطات والتعلُّقـات بحيث يكون الارتباط به مغنياً للإنسان عن أيِّ شيء ، فإنّه حينئذ سيحصل على أسمى اللذّات ، وإذا نظر إلى وجوده على أنّه التعلُّق به نفسه ، ولم يرَ له أيَّ استقلاليـة عنه ، فسـوف تحصل لـديه اللذَّة الاستقـلاليَّة من ذلـك المـوجـود ، وعلى هـذا ، فـإنَّ المطلوب الحقيقيَّ للإنسان والّذي يلتذّ منه أسمى اللذّات هو موجود يقوم به وجود الانسان ، حيث يكون وجود الإنسان هو الـربط والتعلُّق به عينـه ، وان اللذَّة الأصلية تحصـل لـه من مشاهدة ارتباطه به ، أو مشاهدة نفسه حال كونها متعلِّقة وقائمة بـه ، أو هي ـ في الحقيقة ـ تحصـل من مشاهـدة إشعاع من جماله وجلاله تعالى .

ذروة الميول وغاية الآمال :

والنتيجة التي تحصل من خلال التأمُّلات الماضية هي أنّ مدى الميول الفطريَّة الإنسانيَّة يمتـدُّ إلى اللاّنهـاية ، فـلا يعرف أيٌّ منها حدّاً ، ولا يقتضي أيَّة محدوديَّة أو تـوقُّف في مرتبة معيَّنة ، بل إنّها ـ جميعاً ـ تسوق الإنسان نحو اللاّنهاية ، وهـذا من خواصِّ الإنسـان الذي يملك ميـولاً ورغبات غيـر محدودة ، ولا يقتنع بسعـادة مؤقَّتة محـدودة . والواقـع ، أنَّ

هذه الخاصيَّة اللانهائيَّة في الميـول الإنسانيَّـة أمر يقبله حتى الفلاسفة غير الإلهيِّين ، بل تُعتبر من أهمِّ المميِّزات الأساس للإنسان عن الحيوان .

يقول راسل :

(إن أهمّ أنماط التفاوت الرئيسة بين الإنسان والحيوان هي أن الميـول البشريـة ـ خلافـاً للرغبات الحيـوانيـة ـ غيـر محدودة ولا يتيسر إرضاؤها بشكل كامل)[٦] .

وبالرغم من أنَّ هذه الميول تتعلّق بأمور مختلفـة ، إلاّ أنّهـا ـ في النهـايـة ـ تـرتبط وتلتحم فيمـا بينهـا ، ويتلخَّص الإشباع النهائي في شيء واحد هو عبارة عن الارتباط بالمنبع المطلق للعلم والقدرة والجمال والكمال ، وهذه هي خاصيَّة مراتب الوجود ، فإنَّـه مهما اشتـدَّ وقوي وتكـامل اتجـه نحو الوحدة والبساطة ، وذلك كالقوى الإنسانيَّة المتفرِّقة في مقام تعلُّقها بالبدن ، والمتَّحدة في حاقِّ النفس ، إذ تكون النفس في حـال وحدتهـا وبساطتهـا واجـدة لكمـالات كـلِّ القـوى الإنسانيَّة .

ومن هنا يعبِّر الفلاسفة عن ذلك بقولهم :

---

(٦) القدرة : ص١٩ .

(والنفس في وحدتها كلُّ القوىٰ)

وهكذا ، فإنَّ ما يطلبه أيُّ من الميول الفطريَّة ـ والَّذي يمتدُّ مداه من جهة باتجاه اللاّنهاية حيث يتّحد هناك مع سائر المطلوبات ـ هو في الحقيقة شيء واحد ، يُنظر إليه من زوايا نظر مختلفة ، ويُبحث عنه من جهات شتّى ، وهو عبارة عن الارتباط بالموجود المطلق اللاّنهائي الكامل ، أي القرب من الله تعالى .

وفي مثل هذه الدرجة يجد الانسان ارتباطه الكامل بالخالق ، ويجد نفسه متعلِّقاً ومرتبطاً به ، بل يجدها هي التعلقُّ والربط به عينه ، ولا يجد أيَّ نوع من الاستقلال والاستغناء ، وفي هذه المرتبة بالذات يجد كلَّ الأشياء قائمة بالذات الإلهيَّة المقدَّسة ، ويحصل له علم حضوريٌّ بحقائق الوجود ، وينعم ـ وفق استعداده الوجوديِّ ـ بأنوار الجمال والجلال الإلهيِّ ، ويشبع ميله الفطريَّ بمعرفة حقائق الوجود .

وكذلك فإنه في هذه المرتبة التي ينفذ من خلالها إلى منبع القدرة اللاّنهائيَّة ، وتبعاً لارتباطه به ، يمكنه القيام بأيِّ عمل يقع في دائرة إرادته ، فيمكنه ـ حينئذ ـ إشباع ميله الفطريِّ للقدرة .

وكذلك يستطيع ـ في هذه المرتبة ـ أن يحصل على أسمى درجات الحبّ لأسمى المحبوبين ، وينال منتهى القرب والوصول والارتباط الحقيقيّ به . وبتعبير آخر ، فإنه يشاهد قربه وارتباطه بأروع وضوح ، وهو ـ بالتالي ـ ينال أفضل اللّذات وأدومها : ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾(٧)

وطبقاً لهذا ، فإنَّ الميول الفطريَّة الإنسانيَّة والتي تنبع من الخاصيّة الانسانيَّة وهي مقتضى الفعليَّة الأخيرة والصورة النوعيَّة له ، هذه الميول كلُّها تسوقه نحو اللانهاية ، ولا يتمُّ إشباعها الكامل إلاّ بالوصول إلى درجة القرب الإلهي والارتباط بالعالم الأبديّ .

فالكمال الحقيقيُّ للإنسان هو ـ نفسه ـ درجة القرب للباري جلَّ وعلا ، أما سائر الكمالات البدنيَّة والروحيَّة فكلُّها مقدَّمات ووسائل للوصول لمثل هذه الدرجة ، حيث يُستفاد منها بمقدار تأثيرها في الوصول إلى الكمال الحقيقيِّ ـ طبقاً للمقياس الذي تحدَّثنا عنه آنفاً ـ وليس أيٌّ منها حتى أسماها وألطفها يُعدُّ من الكمالات الإنسانيَّة الأصلية ، وان كانت ممّا يميِّز الإنسان ، فلا نجدها عند الحيوان .

---

(٧) سورة القمر ، الآية : ٥٥ .

وبعبارة أخرى :

إن الإنسان إنما يصبح ـ حقيقة وبالفعل ـ إنساناً ، إذا استطاع أن يعبر المرتبة الحيوانيَّة ليخطو في سبيل القرب الإلهي ، أمّا قبل أن يخطو في هذا الطريق ، فهو إمّا إنسان بالقوَّة ـ ان كانت استعدادات الوصول إلى هذا المقام فيه محفوظة ـ وإمّا هو ساقط بشكل كامل ، ومعدود من الحيوانات ، أو أضلّ منها ، إن كانت هذه الاستعدادات قد انتفت من وجوده بسوء اختياره .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعدُّ الكافرين ـ الذين فقدوا قابليَّة الإيمان والعبوديّة ـ شرَّ الدواب وأضلَّ من الأنعام :

﴿ إنّ شرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ الله الَّذينَ كَفرُوا فَهُمْ لا يُؤمنُونَ ﴾(٨)

﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ الله الصُّمُ البُكْمُ الّذينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾(٩)

ويقول في سورة الأعراف :

---

(٨) سورة الأنفال ، الآية : ٥٥ .

(٩) سورة الأنفال ، الآية : ٢١ .

﴿ . . . أولِئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أُولِئكَ هُمُ الْغافِلُونَ ﴾[10]

فهل يمكن اشباع الميول الفطريَّة بشكل كامل ؟

هنا يمكن أن تطرح شبهة في الذهن حاصلها : أنّه وإن كانت الميول الفطريَّة تتّجه نحو اللاّنهاية ولكن أنّى لنا أن نعرف أنَّ الإشباع الكامل لها أمر ممكن الحصول؟ خصوصاً مع الالتفات إلى أن الانسان ـ نفسه ـ موجود ضعيف له قدرات طبيعيَّة واكتسابيَّة محدودة ، وهي مهما قدِّر لها من توسع لا بُدَّ وأن تتناهى من حيث الزمان وتفنى بالتالي عند الموت .

وحلُّ هذه الشبهة ـ بالبيان الذي يناسب هذا البحث ـ هو أنَّ دليل إمكان مثل هذا الإشباع هو الفطرة نفسها ، ذلك أنَّ الميول الفطريَّة هي من الواقعيّات العينيَّة ، وهي جزءٌ من قوانين الوجود ونواميسه ، فهي من قبيل الجاذبيّات التي تقوم بنفسها دليلاً على وجود القوَّة الجاذبة ، لا من قبيل الصور الذهنيَّة ، التي تحصل بواسطة الحواس أو القوى الذهنيَّة ، وتكون نسبتها إلى الحقائق العينيَّة نسبة الكاشف إلى المنكشف ليأتي فيها احتمال المخالفة للواقع .

---

(10) سورة الأعراف ، الآية: 179 .

أمّا مسألة محدوديَّة القوى الإنسانيَّة وانتهـائها بـالموت فهي مبتنيـة على أصالـة المادَّة ، وانحصـار الحيـاة بـالحيـاة الدنيويَّة ، وكلا هذين المبدأين يخالف الفطرة ، إذ أنَّ الميل الفطريَّ الانسانيَّ للكمالات فوق الطبيعيَّة وللحياة الخالدة هو ـ بنفسه ـ ممّا يبطلهما ، ويشكِّل دليلاً كـافياً لإثبـات ما وراء الطبيعة ، وإثبات الحياة الأخرويَّة .

وطبيعيٌّ أنَّ دليل هذا الموضوع لا ينحصر بالفطرة ، إذ يمكن إقـامة بـراهين عقليَّة ونقليَّـة متعدِّدة عليـه ، وهـا نحن نكتفي بأحدها فيما يلي :

إنَّ التأمُّل في نظام الخلقة يوضح حقيقة مهمَّة هي ، انَّ المخلوقات ـ من أصغر ذرة فيها إلى أكبر مجرّة ـ تتبع نـظاماً بـديعاً محيِّـراً للعقول ، وأنَّ بقـاء العالم وحصـول الـظواهـر اللاّمحدودة رهينان بهذا النظام المتقن ، المقدّر ، الـدقيق . ومهما سمت العلوم فانها لا تستطيع أن تحدّد بشكل أكبر مدى العظمة في هـذا النظام ، والـدقَّة في أسـراره وحكمه ، وإن اختراعات الانسـان المدهشـة إنما نمت في ظـلِّ كشف هذه الأسرار والروابط بين الموجودات .

وعلى هذا ، فلا يمكننا أن ننسب حصول أيِّ ظاهرة في العالم إلى المصادفة العمياء ، ونتصـوَّره أمراً لغـواً لا فائـدة

فيه ، لأنَّ حصولها معلول لهذا النظام ، وهي بدورها جزءٌ منه وقطعة من جهاز الخلقة العظيم ، ومؤثِّرة في حركته نحو هدفه وغايته المنشودة ، والواقع إن مجرَّد وجود عنصر عبث لا فائدة فيه يؤدِّي إلى الفوضى والفساد .

وعلى هذا :

فإنَّ وجود الميول الفطريَّة في الإنسان ـ أيضاً ـ ليس أمراً عبثاً وباطلاً ، بل هو على العكس عامل مهمٌّ لرقيِّه وتكامله ووصوله إلى السعادة ، ولو كانت سعادة الانسان وكماله منحصرة بالسعادة المادية المحدودة فإنَّ وجود الميول اللّامحدودة سوف يصبح أمراً لغواً بلا فائدة .

ومن هنا ، فإنَّ إيجاد هذه الميول في أعماق الإنسان ـ عندما لا يكون إشباعها ممكناً ـ يشبه هداية الانسان إلى طريق معيَّن وإشعاره بأنه طريق طويل بعيد ، بحيث انَّه يستجمع كلَّ قواه لطيِّ هذا الطريق ، ويتحرَّك نحو هذا الهدف الموهوم ، ولكنَّه يصطدم فجأة ـ أثناء حركته السريعة ـ بصخرة تعلمه أنَّ الطريق مسدود لا منفذ له .

وطبيعيٌّ أن مثل هذا الخداع لا يناسب شأن الخالق الحكيم ، وإنما هو من عمل الحمقىٰ الذين يلتذُّون ـ نتيجة عُقدهم النفسيَّة ـ بخداع الناس وعذابهم وهزيمتهم ، فإذا بدا

لهؤلاء المخدوعين السراب راح أولئكَ الحمقى يضحكون بملء أفواههم من ذلك .

يقول القرآن الكريم :

﴿ أوَلَمْ يَتفكَّروا في أنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ الله السَّماواتِ والأرْضَ وما بَينَهُما إلاّ بالحَقِ ﴾[11]

﴿ . . . ويَتَفَكّرُون في خَلْقِ آلسَّماواتِ وَالأرْض رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ . . ﴾[12]

﴿ وَما خَلَقْنَا السَّماءَ والأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبين ﴾[13]

﴿ أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلَيْنا لا تُرجَعُون ﴾[14]

---

(١١) سورة الروم ، الآية : ٨ .

(١٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١

(١٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٦

(١٤) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥

الامكان العقلي للارتباط الواعي بالخالق

كانت النتيجة التي خلصنا إليها من تأمُّلاتنا السابقة هي ، إنّ الإشباع الكامل للاحتياجات الفطرية الإنسانية لا يتمّ إلاّ في ظلّ الإرتباط الكامل الواعي بمبدأ الوجود ، ويمكننا أن نثبت إمكان مثل هذا الارتباط بالبرهان الفلسفيّ العقليّ ، وملخّصه :

إنّ جميع الموجودات لها ارتباط لا ينفصم بخالقها ، وإنّ حقيقة وجودها هي الربط والتعلّق به ، ولمّا كان الإنسان قادراً على العلم الحضوريّ بحقيقته ، وما حقيقته ألاّ عين الارتباط بالخالق ، فهو قادرٌ على تحقيق ارتباط واعٍ كامل به ، وبعبارة أخرى نقول : هو قادر على المعرفة والمشاهدة الواضحة للارتباط الوجوديّ الكامل بالخالق .

أمّا العلم الحضوري بالنفس فهو أمرٌ اتّفق عليه كلُّ الفلاسفة الإلهيّين ، فمتى انصرف التوجُّه الإنسانيُّ عن الإدراكات الحسيَّة والخواطر النفسية وتركز على الذات فإنَّ الإنسان سيدركها إدراكاً حضورياً .

ويوجد هذا العلم في سائر الحالات ـ أيضاً ـ وان لم يكن هناك إلتفات تفصيليٌّ له نتيجَة الإنشغال بالمدركات الأخرى . ومن هنا ، فيمكن تقويته وإيصاله إلى مرتبة من الوضوح والوعي عبر تقليل الميول والتعلّقات الماديَّة ، والتعوُّد على النظر إلى النفس ، وتركيز الانتباه نحو الذات .

وأمّا الارتباط الوجوديُّ وتعلقُّ الموجودات بالخالق فيمكن إثباته من خلال مبادىء الحكمة المتعالية ، التي بيّنها المرحوم صدر المتألّهين باثباته أنَّ للموجود مراتب طويلة ، وأنَّ المراتب الدانية ـ حسب ترتيبها ـ هي شعاع من المرتبة العالية ، ومعلولة له ، وقائمة به ، وأنّ العليَّة الحقيقيَّة لا تعني سوى الربط الوجودي ، لا بين شيئين يوجد كلُّ منهما بشكل مستقل ، إذ ـ والحال هذه ـ لا يحتاج أيُّ منهما في وجوده إلى الآخر ، وإنّما الربط الوجودي بين شيء مستقل وشيء آخر غير مستقل يكون وجوده هو الربط والتعلُّق بالعلَّة ، وعليه ، فوجود المعلول بالنسبة للعلَّة الحقيقيَّة التي هي المفيضة للوجود عليه ليس إلاّ ارتباط المحض والإضافة الإشراقيَّة ،

وإذا شاهد أحدٌ حقيقته وجدها قائمة بالعلَّة وشعاعاً منها .

وعلى هذا ، فلو قام أحدٌ بمشاهدة حقيقته فسوف يرى نفسه قائمة ومتعلِّقة بالخالق ، بل يراها عين الربط والتعلُّق به ، ومثل هذه الرؤية لا تنفكُّ عن رؤية إشعاع من أنوار القيّوم المتعالي ، لأنَّ ادراك ارتباط الوجود غير المستقل لا يمكن بدون إدراك ذي الارتباط والموجود والمستقل القيوم عليه :

(. . . وأنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك ، حتى تخرق أبصار القلوب حُجُب النور ، فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقَّة بعزٍّ قُدسك . . .)(١٥)

فمشاهدة حقيقة النفس تواكب المشاهدة الاستقلاليَّة لإشعاع من نور الجمال والجلال الإلهي :

(مَنْ عَرَفَ نَفْسهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ)

وكلّما كانت الدائرة الوجوديَّة للنفس أكثر اتساعاً ، ومرتبتها أكمل ، ورؤيتها أعمق ، والانتباه والتركيز أشد ، كان إدراك الأنوار الإلهيَّة أشدَّ وأوضح :

(. . وألحِقني بنورِ عزِّكَ الأبهج ، فأكون لكَ عارفاً ،

(١٥) المناجاة الشعبانية .

وعن سِواكَ مُنحرفاً . .)[١٦]

وبمقدار وضوح إدراك الإنسان لارتباطه وعدم استقلاليَّته ، يكون ، التفاته وتوجُّهه إلى صاحب الربط والموجود الأصيل والمستقلّ أشدّ ، ورشفه من أنوار عظمته أكثر ، إلى أن يصل إلى مرتبة يكون فيها مرآة جليَّةً ومظهراً كاملاً لذات الخالق جلَّت عظمته :

(. . لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إلاّ أَنَّهُمْ عِبادُكَ وَخَلْقُكَ ، فتقها ورَتْقُها بيَدِكَ ، بِدْؤُها مِنْك ، وَعَوْدُها إليكَ . .)[١٧]

ومع الحصول على مثل هذا الارتباط فإنَّ حاجة الإنسان لمعرفة الحقيقة والتوفّر على القدرة سوف تُشبَع إشباعاً تامّاً ، وسوف يحصل على أسمى اللّذات ، عبر وصوله إلى مطلوبه الحقيقيّ ، واكتشاف ارتباطه الوجوديّ به ، وتحصَل أعلى مراتبه عندما تفرغ النفس من تدبير البدن فلا ترى لها أيَّ التفات إلاّ للباري تعالى ، ولا تشغلها الشواغل في هذا العالم عن رؤيته والاستغراق في هذه الرؤية .

---

(١٦) المناجاة الشعبانية .

(١٧) دعاء أيام شهر رجب .

(وأقرر أعْيننا يَوْمَ لِقائِكَ بِرؤيَتِكَ)[18]

أبسط السبل :

وأبسط السبل للاعتقاد بإمكان الارتباط بعالم القدس والساحة الإلهيَّة هو ذلك السبيل الذي هدى الله ـ تعالى ـ عباده إليه بواسطة المرسلين ، فامتنَّ بذلك على عباده غاية المنَّة وأتمَّ الحجَّة عليهم :

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . . . ﴾[19]

فقد دعا الأنبياء ـ جميعاً ـ الناس إلى التقرُّب من الخالق ، والارتباط بمنبع العلم والقدرة اللانهائيَين ، ووعدوهم بالوصول إلى النعم الخالدة ، واللذّات اللامنتهية ، والحصول على ما تشتهيه أنفسهم :

﴿ لَهُمْ ما يَشاؤُونَ عِنْدَ ربهِمْ ذلك جَزَاءُ المُحْسِنينَ ﴾[20]

﴿ وَفيهَا ما تَشْتَهيهِ الأنْفُسُ وَتَلَذُّ الأعيُنُ ﴾[21]

---

(١٨) مناجاة الزاهدين .

(١٩) سورة النساء ، الآية : ١٦٥ .

(٢٠) سورة الزمر ، الآية : ٣٤ .

(٢١) سورة الزخرف ، الآية : ٧١ .

﴿ فَـلا تَـعْلَمُ نَـفسٌ مَـا أُخْـفِـيَ لَـهُـم مِـنْ قـرَّة أعْيُنٍ . . . ﴾[٢٢]

﴿ لَهُمْ ما يَشاؤُونَ فيها وَلَدَينا مَزِيدٌ ﴾[٢٣]

﴿ وقالوا الحَمدُ لله الذي صَدَقَنا وَعْـدَهُ وَأورثَنا الأرضَ نَتبوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ نَشاء ﴾[٢٤]

والميزة الرئيسة لدعوتهم على دعوات سائر المصلحين تؤكد هذه الحقيقة وهي ، أنّ الحياة المحدودة العابرة ليست آخـر مرحلة من مـراحل الحيـاة الإنسانيَّـة ، بل هي مقـدَّمـة للحصول على السعادة الأبديَّة ، وجسر للوصول إلى العـالم الأبديّ :

﴿ بَلْ تُؤثِرُونَ الحَياةَ الدُّنيا * والآخِرَةُ خَيرٌ وأبقَى * إنَّ هذا لَفي الصُّحُفِ الأولى * صُحُفِ إبراهيم ومُوسَى ﴾[٢٥]

كمـا أن السبب الرئيس لـرفض دعوة الأنبيـاء من قبـل الكافرين هو استبعاد هذه الحقيقة :

﴿ وَقالَ الذينَ كَفَروا هَلْ ندُلُّكُمْ على رَجُل يُنَبِّئُكم إذا

(٢٢) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .

(٢٣) سورة ق ، الآية : ٣٥ .

(٢٤) سورة الزمر ، الآية : ٧٤ .

(٢٥) سورة الأعلى ، الآيات : ١٦ ـ ١٩ .

مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّق إنَّكُمْ لَفي خَلقٍ جَدِيدٍ * أفتَرَى على الله كَذِباً أمْ به جنَّةٌ بَلِ الذين لا يؤمنون بالآخرة في العَذاب والضَّلالِ البَعِيد ﴾[٢٦]

﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلى وَرَبّي لَتُبْعَثُنَّ بِما عمِلْتُمْ وذلك على الله يَسيرٌ . . . يَوْمَ يَجمعُكُمْ لِيَوم الجَمْعِ ذلك يوم التَّغابُنِ ومَنَ يُؤمنْ بالله وَيَعمَلْ صالحِاً يُكفِّرْ عَنهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تجري مِنْ تَحتها الأنهارُ خالدين فيها أبَداً ذلكَ الفوزُ العظيمُ * والَّذينَ كفرُوا وكذَّبُوا بآياتنا أولئك أصحابُ النّار خالدين فيها وبئس المصيرُ ﴾[٢٧]

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وبُكْماً وَصُمّاً مأواهُم جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً * ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأنَّهُمْ كفَرُوا بآياتنا وَقالُوا أإذا كُنّا عِظاماً وَرُفاتاً أإنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلقاً جَدِيداً * أوَلَمْ يَرَوْا أنَّ آلله الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ قادِرٌ على أنْ يَخْلُقَ مِثلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أجلاً لا رَيْبَ فيهِ فَأبَى الظّالِمُونَ إلاّ كُفُوراً ﴾[٢٨]

ولم يكتف رسل الله بالدعوة والوعد والوعيد ، وإنَّما

---

(٢٦) سورة سبأ ، الآيتان : ٧ ـ ٨ .

(٢٧) سورة التغابن ، الآيات : ٧و٩و١٠ .

(٢٨) سورة الاسراء ، الآيات ٩٧ ـ ٩٩ .

عرضوا آثاراً من الارتباط بالعالم الربوبيّ ، والمنبع اللاّنهائي للعلم والقدرة بإذن الله ، ليعلم الجميع أنَّ السبيل لكسب العلم والقدرة لا ينحصر بالأسباب الماديَّة المحدودة ، وأنّ الاستفادة من العلوم الإلهيَّة والقدرات فوق الطبيعيَّة أمر ممكن للإنسان .

وقد أثبت الأنبياء إمكان الارتباط بالعالم الربّاني ، وتلقّي العلوم الغيبيَّة واللَّدُنيَّة ، عبر إخبارهم بالمغيَّبات ، وكشفهم للأسرار الخفيَّة ، وبيانهم للعلوم والحكم دونما دراسة منهم وتعلُّم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّهَا ﴾[٢٩] .

﴿ . . . وَعلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾[٣٠] .

﴿ . . . وآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبيّاً ﴾[٣١] .

﴿ . . . قالوا كَيْفَ نُكلِّمُ مَنْ كانَ في المَهْدِ صَبِيّاً * قالَ إنّي عَبدُ الله آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلني نَبيّاً ﴾[٣٢] .

﴿ وأُنَبِّئُكُمْ بما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ في بُيُوتكُمْ . . . ﴾[٣٣] .

---

(٢٩) سورة البقرة ، الآية : ٣١ .

(٣٠) سورة الكهف ، الآية : ٦٥ .

(٣١) سورة مريم ، الآية : ١٢ .

(٣٢) سورة مريم ، الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠

(٣٣) سورة آل عمران ، الآية : ٤٩ .

﴿ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيرِ وَأوتينَا مِنْ كُلِّ شيءٍ . . . . ﴾[٣٤] .
﴿ . . وكُلًّا آتيْنا حُكْماً وَعِلْماً . . . . ﴾[٣٥] .

والقرآن نفسه فوق كلٍّ ذلك ، إذ هو معجزة خالدة لنبيٍّ الإسلام ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ نزل على فردٍ أمِّيٍّ عاش في مجتمع متخلِّف ، ودعا الجنَّ والإنس ـ منذ بدء نزوله ـ متحدِّياً إيّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ونحن نعلم أنه ـ مع كثرة الدواعي لمثل هذا العمل ـ لم تتحقَّق أيٌّ معارضة للقرآن ، ولن تتحقَّق مطلقاً ، طبقاً لتنبُّؤ القرآن الكريم .

كما أنَّ الأنبياء ـ بقيامهم بالأعمال الخارقة للعادة وانتصارهم على القوى الطبيعية ـ أثبتوا فعلاً إمكان الخلاص من القيود الماديَّة ، والحصول على قدرة لا تقهر .

فخروج الناقة الحيَّة من قلب الجبل بواسطة النبي صالح (ع) وخلاص إبراهيم (ع) من النار الكبرى التي أوقدها نمرود، وتحوُّل عصا موسى (ع) الى ثعبان، وانفلاق البحر ، وجريان اثني عشرة عيناً من الحجارة بواسطة موسى (ع) وشفاء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بواسطة عيسى (ع) وتسخير القوى المحسوسة وغير المحسوسة لسليمان (ع) هي

---

(٣٤) سورة النمل ، الآية : ١٦

(٣٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٧٩ .

كلّها نماذج من الأعمال الخارقة للعادة التي تمّت على أيدي الأنبياء، وحتى الكثير من أتباعهم الصادقين، بمثل هذه العلوم والقدرات ، وقد جاء في حديث قدسي :

(عَبْدي أطِعْني حَتّى أجْعَلَكَ مِثْلِي ، أنَا أقُولُ للشيء كُنْ فَيَكُونُ ، أجْعَلُكَ تَقُولُ للشّيءِ كُنْ فَيَكُونُ) .

وإذا حاولنا أن نجمع الكرامات الثابتة بالنقل الصحيح والمتواتر فإن ذلك سيتطلّب منّا مجلّدات ضخمة بلا ريب .

ومع كلّ هذا ، فهل من الصحيح أن نجد أناساً ينكرون ـ بكلّ جرأة وإغماض عن الحقّ ـ وجود عالم ما وراء الطبيعة أو امكان الارتباط به ، ويمنعون الناس عن السير في هذا السبيل ؟

والحقيقة ، انه حتى لو عدمنا مثل هذه المعاجز والآيات البيِّنة كان الأحرى بالبشريَّة ـ ولو على سبيل التجربة ـ أن تطبِّق نظم الأنبياء ، ثم تقوّم الآثار الكبرى لها في سعادتها الماديَّة والمعنويَّة ، ذلك لأنّ الأمر من الأهميَّة بحيث ترخص معه كلّ تضحية في سبيل تحقُّقه ، خصوصاً إذا لاحظنا أن إجراء شريعة الأنبياء ليس مما يستلزم ترك النعم واللذات الماديَّة والدنيويَّة ، بل هي تضمن السعادة والراحة والطمأنينة في هذا العالم أيضاً ، ولقد وُجد من بين الأنبياء وأتباعهم

أناسٌ تنعَّموا بالنعم الدنيويَّة أكثر مما تنعَّم به أهل الدنيا وعبيد المادة .

ألا يدفعنا إصرار جميع الأنبياء ـ بصدق وتأكيد ـ على هذا الأمر ، والتضحيات التي لا نظير لها التي قدّموها وأوصياؤهم وأتباعهم الصادقون في سبيل إعلائه ، ألا يدفعنا لاحتمال صدق مدّعاهم ؟ إنّ الإنصاف يؤكِّد ذلك بوضوح .

وهل تقلُّ قيمة مثل هذه الحقيقة عن قيمة كشف الأسرار الطبيعيَّة وتسخير الفضاء ؟ وكيف يعَدُّ تحمُّلِ المصاعب والمشاق ، وبذل القوى الطبيعيَّة والإنسانيَّة التي لا تُعدُّ في سبيل الإكتشافات العلميَّة أمراً وجيهاً يقبل الثناء ، ولا يستحقّ الإرتباط بالمنبع اللاّنهائي للقدرة والعلم والوصول إلى السعادة الخالدة أن نصرف في سبيله شيئاً من ذلك ؟

شواهد من الآيات والروايات :

وهذا الذي استفدناه من المقدّمات الوجدانيَّة والعقليَّة يؤيِّده الكتاب والسنَّة ، وقد أشرنا في بعض الصفحات السابقة إلى الشواهد النقليَّة ، وها نحن نذكر نماذج أخرى من الآيات والأخبار .

إنّ القرآن الكريم يؤكِّد أنّ الإنسان يعرف الله بفطرته ، وأنّ كلَّ الناس في نشأة من وجودهم رأوا خالقهم عياناً

واعترفوا بربوبيَّته .

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ﴾

وانَّ الحياة في هذا العالم إنما هي للعمل بمقتضى عهد العبوديَّة ، ويتم تقويم مقدار وفاء الناس بعهدهم وميثاقهم الفطريّ ، وبالتالي تكاملهم الاختياريّ ، بواسطة الطاعة والعبوديَّة لله :

﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣٦]

وليتمَّ هذا التقويم فإنَّ هناك ظروفاً مختلفة ليختار كلٌّ سبيله بكلِّ حرية :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً ﴾[٣٧]

ومن خلال السبُل المعوجّة والمنحرفة ، وفي خضم الحياة ومشاكلها لن يصل إلى السبيل الأقوم الآمن إلاّ أولئكَ الذين يحبُّون ربَّهم ، ويلجأون إليه ، ويبتغون مرضاته ، ويريدون وجهه :

﴿ والَّذينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً لله ﴾[٣٨]

﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ

(٣٦) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

(٣٧) سورة هود ، الآية : ٧ وسورة الملك ، الآية : ٢ .

(٣٨) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥

الله . . . ﴾[٣٩]

﴿ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ويَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾[٤٠]

﴿ ومَن يُسلم وجهَهُ إلى الله وهو محسنٌ فَقَدِ استَمسكَ بالعروة الوثقى . . . ﴾[٤١]

﴿ فَأَمَّا الذين آمنُوا بالله واعتصمُوا به فَسَيُدخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ مِنْهُ وفضلٍ ويَهْدِيهِمْ إليه صِراطاً مُسْتَقيماً ﴾[٤٢] .

وهؤلاء سينالون ـ بالتالي ـ جوار رحمة ربِّهم ومقام القرب الإلهيّ ، لقاء الحبيب :

﴿ يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارجعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مرضِيَّةً * فَادْخُلي في عِبادي * وادخُلي جَنَّتي ﴾[٤٣]

﴿ في مقعد صدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[٤٤]

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إلى ربِّها ناظِرَةٌ ﴾[٤٥]

---

(٣٩) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

(٤٠) سورة المائدة ، الآية : ١٦ .

(٤١) سورة لقمان ، الآية : ٢٢ .

(٤٢) سورة النساء ، الآية : ١٧٥ .

(٤٣) سورة الفجر ، الآيات ٢٧ ـ ٣٠ .

(٤٤) سورة القمر ، الآية : ٥٥ .

(٤٥) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢و٢٣ .

أمّا أولئك الذين تعلّقت قلوبهم بزينة الدنيا ، ورجحت محبّة الآخرين لديهم على محبّة الله فلا شوق لهم إلى رحمته ، فسوف يُبتلون بعذاب أليم لا نهاية له ، ويُحرمون من وصل محبوبهم الفطريّ :

﴿ إنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لَقاءنا ورضُوا بالحياة الدُّنيا واطمأنُّوا بها والذين هم عنْ آياتنا غافِلُونَ * أولئك مَأواهُمُ النَّارُ بما كانون يَكْسِبُونَ ﴾[٤٦]

﴿ قُلْ إنْ كان آباؤُكُمْ وَأبناؤُكُمْ وإخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشِيرتُكُمْ وأموالٌ اقترَفتُمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها ومَساكِنُ تَرْضَوْنَها أحبَّ إليكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولهِ وَجِهادٍ في سَبيلهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأتِيَ الله بِأمْرِه . . . ﴾[٤٧]

﴿ كلاّ إنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[٤٨]

وتوجد في الأحاديث النبويَّة وأخبار أهل بيت الرسالة ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ أيضاً شواهد كثيرة نجد نماذج منها في بعض الأحاديث القدسيّة وأخبار مناجاتهم وأدعيتهم (ع) كالّذي جاء في حديث المعراج مخاطباً النبيَّ

---

(٤٦) سورة يونس ، الآيتان ٧و٨ .

(٤٧) سورة التوبة ، الآية : (٢٤) .

(٤٨) سورة المطففين ، الآية : ١٥

(صلى الله عليه وآله وسلم) :

(فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال :

أعرِّفه شكراً لا يخالطه الجهل ،

وذكراً لا يخالطه النسيان ،

ومحبَّة لا يؤثر على محبّتي محبَّة المخلوقين .

فإذا أحبَّني أحببته وحببَّته إلى خلقي ، وأفتح عين قلبه **إلى جلالي وعظمتي** فلا أخفي عليه علم خاصَّة خلقي ، **فأناجيه في** ظُلم الليل ونور النهار ، حتى ينقطع حديثه مع **المخلوقين** ومجالسته معهم ، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، وأُعرِّفه سرِّي الذي سترته عن خلقي . . . **ولأستغرقنَّ** عقله بمعرفتي ، ولأقومنَّ له مقام عقله . . . فتقول الروح : إلهي ! عرَّفتني نفسك فاستغنيتُ بها عن جميع **خلقك** ، وعزتك وجلالك لو كان رضاك في أن أقطع إرباً أو أُقتل سبعين قتلة بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضاك أحبّ إليّ . . . وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه منّي ، وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي . . .

يا أحمد! لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض ، وصام صيام أهل السماء والأرض ، وطوى من الطعام مثل الملائكة ، ولبس لباس العاري ، ثمَّ أرى في قلبه من حبِّ الدنيا ذرَّة ، أو سُمعتها أو رياستها ، أو صيتها أو زينتها ، لا

يجاورني في داري ، ولأنزعنَّ من قلبه محبَّتي ، ولاظلمنّ قلبه حتى ينساني ، ولا اذيقه حلاوة معرفتي ، وعليك سلامي ورحمتي) .

وفي حديث آخر يقول :

(إن الله جلّ جلاله قال : ما يتقرّب إليّ عبدٌ من عبادي بشيءٍ أحبَّ إليّ مما افترضت عليه ، وانه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته)(٤٩) .

وفي حديث آخر يقول :

(يا ابن آدم!أنا غنيٌّ لا أفتقر ، أطعني في ما أمرتك أجعلك غنيّاً لا تفتقر .

يا ابن آدم! أنا حيٌّ لا أموت ، أطعني في ما أمرتك أجعلك حيّاً لا تموت .

يا ابن آدم! أنا أقول للشيء كن فيكون ، أطعني في ما أمرتك أجعلك تقول للشيء كُنْ فيكون) .

وفي عُدّة الداعي لابن فهد ص٢٩١ :

---

(٤٩) أصول الكافي : ج٢ ، ص٣٥٢ ، ح٨ وكذلك في الوسائل ومحاسن البرقي .

يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في مناجاة شهر شعبان متضرّعاً إلى ربّه :

(. . .واجعل همّتي إلى روح نجاح أسمائك ومحلّ قدسك . . إلهي! هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك ، حتى تخرق أبصار القلوب حُجُب النور فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك . . . وألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً . . . .)

وفي دعاء كميل يقول الإمام علي (عليه السلام) متضرعاً إلى الله تعالى :

(. . .فهبني صَبَرت على عذابك فكيف أصبرُ على فراقك ، وهبني صبرتُ على حرِّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك) .

وقد روي عنه (ع) قوله :
(ما رأيتُ شيئاً إلاّ ورأيتُ الله قبله) .

وفي جواب من سأله : هل رأيت ربّك ؟ قال :

(أفأعبد مالا أرى ؟) .

ويدعو الإمام الحسين سيد الشهداء (عليه السلام) ربّه

في يوم عرفة فيقول :

(إلهي ! علمتُ ـ باختلاف الآثار وتنقُّلات الأطوار ـ أنَّ مرادك منّي أن تتعرَّف إليَّ في كـلِّ شيءٍ حتى لا أجهلك في شيءٍ . .

إلهي ! تردُّدي في الآثار يوجب بُعد المزار ، فاجمعني عليك بخدمةٍ توصلني إليك .

كيف يُستدَلُّ عليك بما هو في وجـوده مفتقر إليـك ؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المـظهر لك ؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليـل يدلُّ عليـك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ عميتْ عينٌ لا تراك عليها رقيبـاً ، وخسرت صفقـة عبدٍ لم تجعـل له من حبِّك نصيباً .

إلهي ! أمـرتَ بالـرجوع إلى الآثـار ، فـارجعني إليـك بكسوة ، الأنوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلتُ إليك منها ، مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمَّة عن الاعتماد عليها . . .

إلهي ! علمني من علمـك المخـزون ، وصُنِّي بستـرك المصون ، إلهي ! حقِّقني بحقائق أهـل القرب ، وآسلُك بي مسلك أهل الجذب ، إلهي !أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري ، وباختيارك عن اختياري . . .

أنت الـذي أشـرقت الأنـوار في قلوب أوليـائـك حتى

عـرفـوك ووحَّــدوك ، وأنت الـذي أزلتَ الأغيــار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العـوالم ، وأنت الذي هـديتهم حيث استبانت لهم المعالم .

ماذا وجد من فقدك ؟! وما الذي فقد من وجدك ؟! لقد خـاب من رضي دونـك بـدلاً ، ولقـد خســر من بغى عنـك متحوَّلاً . . .

إلهي ! اطلبني برحمتك حتى أصـل إليك ، واجـذبني بمنّك حتى أقبل عليك . . . تعرَّفتَ لكـلِّ شيءٍ فما جهِلك شيءٌ ، وأنت الذي تعرفت إليَّ في كلِّ شيءٍ ، فرأيتك ظاهراً في كلِّ شيء ، وأنت الظاهر لكلِّ شيء) .

ويقول الإمام زين العابدين في مناجاة الخائفين متضرّعاً إلى ربّه :

(ولا تحجب مشتاقيك عن النظر إلى جميل رؤيتك) .

وفي مناجاة (الراغبين) :

(أسألكَ بسُبُحات وجهك ، وبأنوار قدسك ، وأبتهـل إليـك بعواطف رحمتـك ولطائف بـرِّك ، أن تحقِّق ظنّي بمـا أؤمِّله من جزيل إكرامك ، وجميل إنعامك في القربى منك ، والزلفى لديك ، والتمتّع بالنظر إليك) .

وفي مناجاة (المريدين) :

إلهي ! فاسلُك بنا سبل الوصول إليك ، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك . . . فأنت ـ لا غيرك ـ مرادي ، ولك ـ لا لسواك ـ سهري وسهادي ، ولقاؤك قرَّة عيني ، ووصلك مُنى نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاكَ بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي . . . يا نعيمي وجنتي ، يا دنياي وآخرتي) .

وفي مناجاة (المحبّين) :

(إلهي ! فاجعلنا ممَّن اصطفيته لقربك . . . ومنحته بالنظر إلى وجهك ، وحبوته برضاك ، وأعذته من هجرك وقلاك ، وبوَّأته مقعد الصدق في جوارك . . . واجتبيته لمشاهدتك . . . وامنن بالنّظر إليكَ عليَّ) .

وفي مناجاة (المتوسّلين)

(وأقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقائك ، وأورثتهم منازل الصدق في جوارك) .

وفي مناجاة (المفتقرين) :

(وغلَّتي لا يبِّردها إلاّ وصلك ، ولوعتي لا يطفئها إلاّ

لقاؤك ، وشوقي إليك لا يبلّه إلاّ النظر إلى وجهك ، وقراري لا يقرُّ دون دنوّي منك . . . وغمّي لا يزيله إلاّ قربك) .

وفي مناجاة (العارفين) :

(وقرَّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم . . . وما أطيب طعم حبِّك ، وما أعذب شرب قُربك ، فأعذنا من طردك وابعادك) .

وفي مناجاة (الذاكرين) :

(إلهي ! بك هامت القلوب الوالهة ، وعلى معرفتك جُمعت العقول المتباينة ، فلا تطمئنُّ القلوب إلاّ بذكراك ، ولا تسكن النفوس إلاّ عند رؤياك . . . وأستغفرك من كلِّ لذة بغير ذِكرك ، ومن كلِّ راحة بغير انسك ، ومن كلِّ سرور بغير قربك ، ومن كلِّ شغل بغير طاعتك) .

وفي مناجاة (الزاهدين) :

(واغرس في أفئدتنا أشجار محبَّتك ، وأتمم لنا أنوار معرفتك . . . وأقرر أعيننا يوم لقائك برؤيتك) .

استنتاجات وتساؤلات

الاستنتاج من البحوث الماضية :

من خلال التأمُّلات التي مرَّت في البحوث الماضية نستنتج ما يلي :

إن النشاطات الحياتيَّة في مختلف الحقول العلميَّة والعمليَّة ، الفرديَّة والاجتماعيَّة ، إنَّما تعتبر نشاطات إنسانيَّة إذا كانت في إطار السير بالإنسان إلى كماله الحقيقيِّ .

وبعبارة أخرى ، إنَّ الحركات والنهضات التي يجب أن تتَّخذ لها اتجاهاً معيَّناً إنما تُعتبر من نشاطات الإنسان ـ من حيث كونه إنساناً ـ إذا اتجهت باتجاه الكمال الانساني ، وإنما يمكن إعطاؤها هذا الاتجاه الإنسانيّ إذا أمكن معرفة النقطة النهائيَّة للسير التكامليِّ للبشريَّة ، ذلك لأنّ حركته

الكمالية حركة علميَّة وإراديَّة فهي ـ بالتالي ـ تحتاج لمعرفة الهدف والسبيل نحو الهدف ، ثم إنَّ معرفة الهدف ـ بمعنى وجدانه وادراكه ادراكاً وجدانياً شهودياً ـ لا تتم قبل الوصول إليه ، ولذا فلا مناصَّ من كون معرفة الهدف تشكل صورة ذهنيَّة ، وكلَّما كانت هذه المعرفة أوضح وأوعى كان إمكان حصول التكامل الإراديِّ الاختياريِّ أكثر .

على أن السير التكامليَّ للانسان يتمُّ ـ بلا ريب ـ بمعونة القوى الداخليَّة والدوافع النفسيَّة الموجودة في أعماقه ، وعليه ، فإنَّ اتجاه الميول الفطريَّة يعتبر أفضل سبيل لمعرفة الهدف النهائي والكمال الحقيقيِّ للانسان ، ومن خلال التأمُّل في الوجهة التي يشير إليها أيٌّ من هذه الميول نعرف أنها ـ جميعاً ـ تسوق الانسان نحو اللاّنهاية ، وأنَّ إشباعها بشكل مؤقَّت ومحدود لا يقنع الانسان بشكل كامل ولا يتمُّ إشباعها تماماً إلاّ بالاتصال بمنبع العلم والقدرة والارتباط بمعدن الجمال والكمال اللانهائي ، وعليه ، فالتعلُّق بنور العظمة الإلهيَّة لوحده هو المجال الذي يشاهد الإنسان ـ من خلاله ـ حقيقته هو وكل عوالم الوجود قائمةً بالذات الإلهيَّة المقدَّسة .

في الحديث القدسي :

(. . وأفتح عين قلبه إلى جلالي وعظمتي فلا أخفي عليه عِلْمَ خاصَّة خلقي . .) .

وعندئذٍ يشبع ميله لاستطلاع الحقيقة ، وكذلك يصل إلى حقيقة نفوذ القدرة الإلهيَّة اللانهائيّة من خلال إرادته ، فهو يفعل ما يريد بإذن الله تعالى :

(أجعلك تقول للشيء كن فيكون)

فيشبع ميله للقدرة التي لا تقهر ، وفي هذه المرتبة يصل إلى محبوبه ذي الجمال والكمال اللامتناهي ، ويجد نفسَه في أحضان اللطف والعناية اللاّمحدودة ، فيروي بذلك كلَّ ظمئه وحاجاته ، وما أروع هذا الإشباع بيد المعشوق ، يصحبه اللطف الغامر والحب العميم :

(فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به.)

وعندئذ فلا ينشغل إلاّ بوصاله ، ولا يفكر إلاّ برضاه :

(فأنتَ لا غيرك مُرادي)

و(وصلُك مُنى نفسي . . . ورضاك بُغيتي) .

﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ .

فلا يحصل بونٌ بينه وبني محبوبه ، ولا يُبتلى بفراق أو هجران :

(ثم أرفع الحجب بيني وبينه فأنعمه بكلامي وألذِّذه بالنظر إليِّ) .

(وأعذتَهُ من هجرك وقلاك) .

وبالتالي ، فإنه سيجد نفسه في هذا المقام وهـو واجد للكمال النهائي ، وقائم بمفيض الوجود ، وحينئذٍ ينال أسمى اللذات ، ولأنه لا يجد لنفسه استقلالاً فإن حب ذاته سيفقـد استقلاليته ، وتتعلق المحبة الأصيلة بالخـالق ، وبدلاً من أن يريد الله لذاته فإنه يريد ذاته لله ، بل لن يلتفت لـذاته وإنمـا يغيب في عالم من جمال المحبوب :

(ولأستغرقنَّ عقله بمعرفتي ، ولأقومنَّ له مقام عقله)

وعليـه ، فإن المـطلوب الحقيقيّ والمحبـوب الـذاتيّ لـلإنسان هـو الخالق جـلّ وعلا ، ويكمن الكمـال الحقيقي للانسان في التقرب إليه ، ويجب أن تُستثمر سائر الكمالات المـادية والمعنـوية في سبيـل الوصـول إلى هـذا الكمـال ، وتتلاحـم كل القوى لتحقيق هذا الهدف ، وكل خطوة في غير هذا الصراط تبعده عن الهدف ، وكل قوة تصرف في ما عدا سبيل الرضا الإلهي سوف تؤدي إلى خسارته وضياعه :

(وأستغفرك من كلّ لـذّة بغير ذكـرك ، ومن كل راحـة بغير انسك ، ومن كل سرور بغير قربك ، ومن كل شغل بغير طاعتك) .

الجواب عن بعض التساؤلات :

السؤال الأول : إن كان المطلوب الحقيقي للإنسان هو

مقام القرب الإلهي ، وأنه عبر وصوله إليه ينال أسمى اللذات وأدومها ، فلماذا لا نجد أكثرية الناس في هذا الصدد بالرغم من أنهم بالفطرة يسعون نحو اللذة والسعادة ؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول : إن سعي الإنسان للوصول إلى الكمال والسعادة الحقيقيَّة ، ونيله للذّتهما منوط بمعرفة اللَّذة وتصديقه بها ، ولأنَّ أكثريَّة الأفراد لا يعرفون الهدف الأصليَّ للخلقة وكمالهم الحقيقيّ كما ينبغي ، ولم يذوقوا لذَّة الوصول إليه ، فانهم لن يكونوا في صدد البحث والوصول إليه ، ولكنهم يعرفون الكمالات الماديَّة والدنيويَّة ، ويدركون لذَّة الوصول إليها ، ولذا فهم يبذلون كلَّ قواهم للوصول إليها ، هذا وإن كان هناك فرق بين الناس في اختيار الحاجات الدنيويَّة وشؤونها ، إذ نجد كلَّ شخص يختار ـ وفقاً لميوله ـ مجموعة معيَّنة منها باعتبارها الأهمَّ والأكثر قيمة ، أو الأقلَّ مؤونة والأسهل ، ويبذل جُلَّ اهتمامه في سبيل الوصول إليها .

إنّ معرفة الكمال الحقيقي ، وإن كانت تمتلك جذوراً فطريةً ، ولكنها لا تصل عند أكثر الناس ـ وبشكل طبيعي ـ إلى حدِّ الوعي الكافي ، وإنّما تحتاج إلى إرشاد وتربية صحيحة .

ومن هنا ، كانت إحدى أهم وظائف الأنبياء (عليهم

الصلاة والسلام) واهدافهم ، توعية هذا الجانب اللاّشعوري الفطري ، والتذكير بالعهد الإلهيّ المنسيّ :

يقول أمير المؤمنين (ع) :

(ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكّروهم منسيَّ نعمته) .[٥٠]

وهذه المسؤولية العظمى ملقاة في هذا الزمان على عهدة من عرفوا سبيل الأنبياء بشكل أتمّ ، ولديهم قدرة تعريفه للآخرين ، لكي يعيدوا الضالّين عن طريق السعادة إلى السبيل الأقوم ، ويعرّفوهم بُغيتهم الفطريَّة .

السؤال الثاني : إذا كان الهدف الأصلي لخلق الإنسان هو الوصول لمثل هذا المقام ، فلماذا نجد الغرائز الموجودة في أعماقه تقوده دائماً نحو اللذات الماديّة ، والظواهر الدنيوية الخلابة ، وتمنعه من السير نحو هدفه الأصلي ؟ ألا يعتبر هذا نقضاً للغرض ، وخلافاً للحكمة ؟ ألم يكن المرء أكثر انسجاماً مع هذا الهدف لو لم يكن في أعماقه سوى الدوافع التي تسوقه نحو الله والعالم الابدي ؟

ولكي يتوضَّح الجواب عن هذا السؤال ، يجب

(٥٠) نهج البلاغة : الخطبة الأولى .

الالتفات إلى نكتتين هما :

١ ـ إن قيمة الكمال الإنساني تكمن في كونه اختيارياً ، وهي الميزة التي تجعل الإنسان مخدوماً من قبل الملائكة وغاية لسجودهم ، ولتحقُّق أرضيَّة الاختيار كان لا بُدَّ من وجود سبل مختلفة وجواذب متنوِّعة لكي لا يكون السير في سبيلۀ السعادة إجبارياً مفروضاً .

٢ ـ بما أن التكامل الانسانيَّ تدريجيٌّ وله مراحل طويلة ، فمن اللازم أن يدوم مجال الاختيار إلى مدَّة لا بأس بها ، لكي يستطيع الانسان في كلٍّ مرحلة أن يختار سبيله بكلِّ حرية ، ويغيِّر اتّجاهه إذا شاء .

ومع الالتفات لهاتين النكتتين يتوضّح سرُّ الحياة الدنيويَّة والتدريجيَّة للانسان ، وبديهيٌّ ، أن بقاء الإنسان في عالم الحركة والتغيير والتكامل التدريجي بحاجة إلى أسباب ووسائل وشروط وامكانات خاصَّة ، وتشكّل الغرائز الطبيعيَّة ـ في الواقع ـ دوافع لتهيئة هذه الأسباب والظروف ، وهي في ضمن ذلك تلعب دوراً في تهيئة مجال الاختيار الانساني ، وفي حالة اختيار السبيل الصحيح يمكنها أن تقدِّم خدمات جيِّدة للتقدُّم الانسانيِّ باتجاه الهدف الأصليِّ والكمال النهائي ، وعليه ، فإن وجودها لا يناقض هدف الخلقة ، بل

إن عدمها يخالف الحكمة الإلهيّة المطلقة .

السؤال الثالث : على فرض التسليم بأن الكمال النهائي للانسان ممكن التحقق في الجملة عبر القرب الإلهي وتجاوز كل الرغبات والميول في سبيل نيله والوصول إلى مثل هذا المقام ، فإنه لا ريب في إنحصار مثل هذه المهمة والقدرة في أفراد قليلين ـ وبالتالي ـ ، فإن الوصول إلى الكمال المطلوب سوف يكون مختصاً بهم في حين تحرم الأكثرية العظمى للناس من هذه النعمة .

وفي مثل هذه الحالة هل يمكننا أن نقول إن هؤلاء الأفراد القليلين هم وحدهم الذين يستحقون لقب الانسانيّة ، في حين يكون الآخرون في الواقع حيوانات لا تمتلك حظاً من الانسانية إلّا في الشكل الظاهري لا غير وبالتالي يحكم عليهم جميعاً بالشقاء الأبدي ؟

وفي مجال الجواب عن هذا التساؤل نقول :

إن الكمال الحقيقيَّ للانسان ـ كما أكَّدنا ذلك مراراً ـ له مراتب مختلفة ، وإذا كان الوصول إلى أسمى المراتب غير ميسَّر للجميع فإنَّ الوصول إلى أدنى المراتب ميسَّر للجميع ، وهو يحصل بالإيمان بالله والسير على سبيل عبوديَّته ، في حين أنَّ بذل كلِّ القوى في سبيل الرضا الإلهيِّ هو من

خصائص المراتب السامية .

ومن الطبيعيّ ان الآثار المترتّبة على القرب الإلهي ليس على مستوى واحد في كلّ المراتب ، فالعلم الكامل بالحقائق والقدرة على إيجاد أيّ شيءٍ أو اللّذة الكاملة من اللّقاء الإلهي لا تحصل لدى أيّ مؤمن في هـذا العالم ، إلاّ أنّ من يحفظ إيمانه إلى نهاية حياته من أيّ تلاعب ولا تسلبه كثرة الذنوب والمعـاصي إيمانـه ، هذا الانسـان سوف يصـل بالتـالي إلى السعادة الأبديَّة وإن كانت المدَّة الفاصلة إلى ذلك اليوم طويلة المدى ، وفي هذه الأثنـاء سوف يمـرُّ بمراحـل صعبة أليمـة نتيجـة أعمالـه الانحرافيَّـة ، ولسنا نـرى حاجـة لتوضيـح أنَّ للسعادة الأبديَّة والجنَّة الخالدة أيضـاً درجات مختلفـة ، وأنَّ كـلاً يُجازَى في ذلـك العالم بمقـدار معرفتـه وإيمانـه ووزن أعمـاله وأخـلاقـه ، ويمكن أن لا يملك أيَّ شخص في أيّ درجـة سوى ظـرفيَّة إدراك لـذّات تلك الدرجـة ، وأنَّ إرادته تتعلق بالحصول عليها فقط .

وعلى هذا ، فليس كلُّ من لم يصل إلى قمَّة الكمـال الإنسـانيّ ونهايـة القـرب الإلهيّ لا يستحقُّ اسم الانسـان ، وبالتالي فهو محكومٌ بالشقاء والعذاب الأبديّ .

القرب الإلهي

ليس المقصود بالقرب من الله تعالى ـ وهو المطلوب النهائي للانسان والذي يناله الانسان بحركته الاختيارية ـ هو قصر الفواصل الزمانية والمكانية ، ذلك لأن الله تعالى هو خالق الزمان والمكان والمحيط بكل الأزمنة والأمكنة ، ولا نسبة زمانية أو مكانية له مع أيّ موجود :

﴿ هُوَ الأوّلُ والآخِرُ والظاهِرُ وَالباطِنُ ﴾[٥١]

﴿ وهو مَعَكُمْ أينما كُنْتُمْ ﴾[٥٢]

﴿ فَأينما تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾[٥٣]

---

(٥١) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٥٢) سورة الحديد ، الآية : ٤ .

(٥٣) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .

هذا ، بالإضافة إلى أن قلة الفواصل الزمانية والمكانية بنفسها لا تعتبر كمالاً فما هو المقصود من هذا القرب إذن ؟

من الطبيعي أن تكون لله تعالى إحاطة وجوديّة بكلٍّ العباد والمخلوقات .

﴿ ألا إنَّهُ بِكُلِّ شيءٍ مُحيطُ ﴾(٥٤)

وأن يكون الوجود وكلُّ الشؤون الوجوديَّة للموجودات في قبضة قدرته ، ومتعلِّقة بإرادته ومشيئته ، بل إنّ الوجود وكلَّ شيء هو ـ بعينه ـ الإرتباط والتعلُّق به ، وعلى هذا ، فهو إلى كلِّ شيء أقرب من أيِّ شيء آخر :

﴿ ونَحنُ أقْرَبُ إليهِ مِنْ حِبْلِ الوريدِ ﴾(٥٥)
﴿ ونَحْنُ أقرَبُ إليهِ مِنْكُمْ ولكِنْ لا تُبْصِرونُ ﴾(٥٦)

وهذا القرب وجوديٌّ حقيقيٌّ ، ولكنَّه ليس كسبيّاً ، ومن هنا ، لا يمكن أن يعتبر غاية وهدفاً للسير التكامليِّ ، ويمكن أن يتصوَّر للقرب معنى إكتسابي يقبل الانطباق على الكمال النهائي للانسان ، وهو القرب الاعتباري والتشريفي ، بمعنى أن يكون الإنسان موضعاً للعناية الإلهيَّة الخاصَّة بحيث يُجاب

---

(٥٤) سورة فصّلت ، الآية : ٥٤ .
(٥٥) سورة قٓ ، الآية : ١٦ .
(٥٦) سورة الواقعة ، الآية : ٨٥ .

إلى كلِّ طلباته :

(. . إن دعاني أجبتُهُ ، وإن سألني أعطيتُهُ . . .)

والعبد الذي يصل إلى هذا المقام يكون قد وصل إلى مطلوبه ، وهذا الاستعمال شائع لدى العرف أيضاً ، حيثُ يقال للشخص الذي يكون موضع محبَّة شخص عظيم بأنه (مقرَّب منه) ، وقد أطلق القرآن الكريم عنوان (المقرَّبين) على الذين هم في طليعة المسيرة التكامليَّة الإنسانيَّة :

﴿ والسّابقُونَ السّابقُونَ * أولئكَ المُقَرَّبُونَ ﴾(٥٧)

إلّا أن بحثنا هنا ليس بحثاً لفظيّاً ، ولا نرمي لمعرفة المعنى المناسب للفظ (القرب) وإنما نقصد الدقة الأكثر في الهدف النهائي للانسان ، لنعرف ـ من خلال ذلك ـ الطريق الكلِّيَّ والمسير الأصليَّ للتكامل ، فيجب أن نركز على الحقيقة الكامنة وراء التشريف والاعتبار .

إن الحقيقة التي تعتبر هي الكمال النهائي ونسمِّيها (القرب الإلهي) هي مرتبة من الوجود تصل فيها الإمكانات الذاتيَّة للشخص ـ بسبب سيره وحركته الاختيارية ـ إلى المرحلة الفعليَّة ، سواء كانت حركة سريعة كسرعة البرق

---

(٥٧) سورة الواقعة ، الآيتان : ١٠ ـ ١١ .

(مثل حركة بعض الأنبياء والأولياء ، الذين يبدأون بالسير التكاملي من اللحظات الأولى لحلول الروح في البدن ، ويصلون خلال مدة قصيرة إلى الكمالات العظمى مثل عيسى ابن مريم الذي يقول في المهد :

﴿ إنّي عَبْدُ الله آتاني الكتاب وجَعَلَني نَبِيّاً ﴾(٥٨) .

وقد جاء في روايات الشيعة أنّ القادة من أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يسبِّحون لله في بطون أمهاتهم ، وأنهم يولدون ساجدين وهم (السابقون) ، أو كانت حركة عادية أو بطيئة مثل حركة سائر المؤمنين في قبال الحركة الهابطة والسير المتراجع للكافرين والمنافقين .

والكمال الذي يحصل إثر هذا السير الاختياري لا يتبع الموضع الزمانيّ والمكانيّ والأوضاع الماديَّة والجسمانيَّة ، بل يرتبط بالروح والقلب الانسانيِّين ، أما الظروف الماديَّة ، فلها دور تهيئة الأرضية المساعدة للسير والسلوك المتكامل ، وإلاّ فإنّ الحركة الكمِّية والكيفيَّة للبدن أو الانتقال من مكان إلى مكان آخر لا تأثير لها في تكامل الانسان ، إلاّ بمقدار المساعدة التي تقدِّمها للسير الروحيِّ والمعنويِّ ، فتؤثِّر بشكل

---

(٥٨) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

غير مباشر في السير التكامليّ للانسان .

فالتكامل الحقيقيُّ الإنسانيُّ عبارة عن سير الروح العلميّ إلى الله في أعماق ذاتها لتصل إلى مقام تجد فيه نفسها عين التعلُّق والإرتباط ، ولا تجد لها ولا لأيّ موجود استقلالاً في الذات والصفات والأفعال ، ولا يمنعها أيُّ عارض عن المشاهدة ، وتقوم العلوم والمشاهدات في هذا المسير بتعميق المرتبة الوجوديّة للإنسان ، وتجعل جوهر ذاته بالتدريج أكمل فأكمل .

وعلى هذا ، فبالمقدار الذي يتصوَّر الإنسان نفسه أقلَّ احتياجاً للمدد الإلهي ، وأكثر استقلالاً في تدبير أموره ، وتهيئة الأسباب والوسائل الحياتيَّة والقيام بالأعمال البدنيَّة والفكريَّة ، وكذلك بالمقدار الذي يرى فيه للأشياء الأخرى تأثيراً استقلاليّاً أكبر يكون اشدَّ جهلاً ونقصاً وأبعد عن الله ، وفي قبال ذلك فإنه بالمقدار الذي يحسُّ بحاجته الشديدة لله ، ويرفع حجب الأسباب ، ويجلي الحُجب المظلمة والمنيرة عن عين قلبه ، سوف يكون أعلم وأكمل وأقرب إلى الحدّ الذي لا يكون فيه موحِّداً في الأفعال والتأثيرات فحسب ، بل ولا يرى للصفات والذوات أيضاً أيَّة استقلاليَّة ، وهو مقام يناله العباد الصالحون والمنتجبون المخلصون والعباد المختارون من قبل الله تعالى ، فلا يبقى حجاب بينهم

وبين معبودهم ، فالقرب الحقيقيُّ إلى الله هو أن « يعي » الانسان أنه يملك بالله كلَّ شيء وأنه بدونه لا شيء .

سبيل التقرُّب :

إن كلَّ موجودات العالم مخلوقات الله تعالى ، وهي محتاجة إليه في شؤونها الوجوديَّة ولا استقلالية لها مطلقاً :

﴿ ذٰلِكُمُ الله ربُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شيء ﴾[59] .

﴿ أنتُمُ الفُقَراء إلى اللهِ وَالله هُوَ الغَنِيُّ الحَميدُ ﴾[60] .

وحقيقة وجودها عين الربط والتعلّق ومحض المملوكية والعبودية :

﴿ كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ﴾[61] .

﴿ وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلحيِّ القَيُّومِ ﴾[62] .

﴿ إن كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ إلاّ آتي الرَّحْمٰنِ عَبْداً ﴾[63]

(٥٩) سورة غافر ، الآية :٦٢ .
(٦٠) سورة فاطر ، الآية : ١٥ .
(٦١) سورة القصص ، الآية :٨٨ .
(٦٢) سورة طه ، الآية : ١١١ .
(٦٣) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .

والأفعال التي تصدر منها هي آثار للوجود التعلّقي وعلامة للمملوكية والفقر . وعليه ، فكلٌ موجود هو عبد الله تكويناً :

﴿ ولَهُ أسْلَمَ مَنْ في السّماواتِ وَالأرضِ ﴾[٦٤] .

﴿ وَلله يَسْجُدُ ما في السّمواتِ ومَا فِي الأرض ﴾[٦٥] .

﴿ وإن مِنْ شَيءٍ إلا يُسبِّحُ بِحَمدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُون تَسْبيحَهُمْ ﴾[٦٦] .

وليس الإنسان مستثنى من هذه القاعدة الكلية ، ولكنَّه لا يعي ـ عادة ـ عبوديَّته التكوينيَّة . وبعبارة أُخرى : فإنه خُلِق في هذا العالم بحيث يتصوَّر نفسه والأشياء الأخرى مستقلَّة في الوجود :

(بناهم بنية على الجهل)[٦٧] .

بمعنى أنه لا يرى وجوده متعلِّقاً بالله ، ويرى أن كمالاته هي من صنع نفسه ، ويرى نفسه مستقلاً في أفعاله ، ويرى

---

(٦٤) سورة آل عمران ، الآية : ٨٣ .
(٦٥) سورة النحل ، الآية : ٤٩ .
(٦٦) سورة الإسراء ، الآية : ٤٤ .
(٦٧) بحار الأنوار : ج٣ ، ص١٥ ، ح٢ .

للمـوجودات الأخـرى هـذا الاستقـلال في الـوجـود والآثـار الوجوديَّة .

وهو يسعى دائماً لتوسعة دائرة الوجوديَّة ، ونيل كمالات أكثر ، وقدرة أكبر على الأعمال وتحكيم أُسس استقلاله ، فلا يـوجد بين ادراكـاته وميـوله الـواعية شيء يتنـافى مع تصـور الاستقـلال هذا . وطبيعي أن لـه إدراكاً لا شعـوريّـاً فـطريـاً بـاحتياجـه الذاتي وعـدم استقلالـه الـوجـودي ولكنَّ سيـطرة الجانب المادي والحيواني تمنع من أن يصل إدراكه الفطريُّ إلى حدِّ الوعي ، اللّهم إلاّ في الظروف الاستثنائية .

وعنـدمـا يصـل الإنسـان إلى رشـده العقلي يستـطيـع ـ بواسطة نشاطاته الذهنيَّة واستدلالاته العقلية ـ أن يعي فقـره الوجودي ، إن قليلاً أو كثيراً ، ويهتدي بذلك إلى وجود خالق الكـون . ومن خـلال تكـامله العقليِّ وقـدرتـه الاستـدلاليـة بـالتدريـج يحصل على وعي أكبـر بحاجتـه الأسـاس وعـدم استقلاله الذاتي ، ومن ثمَّ يصل في نهاية السير العقلاني إلى حقيقة ربطه ، ويعلم بها علماً حصولياً .

ولكن هـذا السير الـذهني بنفسـه لا يؤدي إلى نتيجـة شهوديَّة حضـوريَّة ، إذ لا يُبقي تسلُّط الغـرائز والاحسـاسات وجـاذبيَّة الميـول والعـواطف ـ في الغـالب ـ مجـالاً لـظهـور المعرفة الفطريَّة وتجلِّيها . اللّهم إلاّ أن يصمِّم الإنسان على

الوقوف بوجه طغيانها ليعي ذاته إلى حدٍّ ما ، ويفتح له سبيلاً إلى أعماق روحه ، ويبدأ سيراً معنويّاً إلى الحقِّ ؛ بمعنى أن يتوجَّه بقلبه إلى الله ، ويصقل معرفته الفطريَّة بدوام التوجُّه القلبي وتقويته وتركيزه ، وبالتالي ، بتقريب نفسه إلى الله .

في مثل هذه الحالة ، يبدأ السير التكاملي الانسانيُّ باتجاه المقصد الحقيقيِّ والمقصود الفطري . بمعنى انه بالاختيار الحر يبدأ بسعي واعٍ ليجد ارتباطه بالله ، ويعترف بحاجته وعجزه وذلّته ، وبالتالي فقره وفقدانه الذاتي ، ويرجع مملوكات الله ـ التي كان ينسبها بالباطل إليه وإلى الآخرين ـ إلى مالكها الحقيقي ، ويعيد رداء الكبرياء الإلٰهي إلى صاحبه :

﴿ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[68]

وتستمرُّ هذه المرحلة حتى يكون عبداً خالصاً . وعلى هذا ، فيمكن القول إن الكمال النهائي للإنسان يكمن في صيرورته عبداً خالصاً ، أو مشاهدة الفقر الذاتي أو الكامل في نفسه ، وان سبيل الوصول إليه يتمُّ بالعبادة وطلب رضا الله ، بمعنى جعل رضا الله بدل رضا نفسه :

---

(٦٨) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

﴿ إلاّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾[٦٩] . فالمسير الأصليُّ التكامليُّ والصراط المستقيم للانسانيَّة ، والسبيل الصحيح للقرب الإلٰهي هو ؛ قضاء حقِّ العبودية والعبادة ، وإلغاء تصوُّرات الاستقلال ، والاعتراف بالعجز الكامل الشامل له :

﴿ وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٧٠] .

﴿ وَأنِ آعبُدُوني هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[٧١] .

وإنما يمكن أن يعتبر السعي سعياً في سبيل القرب الإلٰهيِّ ، وفي مسير التكامل الحقيقيِّ ، وبتعبير آخر ؛ سعياً إنسانيّاً إذا كان مصطبغاً بصبغة العبوديَّة وعبادة المعبود الحق . ولا يمكن اعتبار أيِّ عمل أو نشاط أمراً موجباً للكمال الحقيقيِّ مطلقاً إلاّ عبادة الله تعالى .

---

(٦٩) سورة الليل ، الآية : ٢٠ .

(٧٠) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

(٧١) سورة يس ، الآية : ٦١ .

حقيقة العبادة

للعبـادة معـانٍ أو تعبيـرات مختلفـة من حيث السعـة والضيق :

١ ـ العبادة عمل يؤدَّىٰ بعنوان تقديم العبودية في رحاب الخالق ، وليس لها أيّ علاقة ـ في ذاتها ـ مع ما عدا الله مثل الصلاة ، والصوم والحج .

٢ ـ العبادة عمل يجب أن يؤدَّىٰ بقصد القربة وإن كان عنـوانه الأولي لا يـدخل في مجـال تقـديم العبـوديَّـة ويتعلَّق بـالعبـاد ، مثـل : الخمس ، والـزكـاة ، والجهـاد ، والأمـر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

٣ ـ العبادة عمل يؤدَّىٰ بقصد القربة ، وإن كانت صحَّته غير متوقِّفة على هذا القصد مثل كلِّ الأعمال التي تقع موضعاً

للرضا الإلهي ، فإذا أُدِّيت بقصد القربة فإنَّها ستكون عبادة بهذا المعنى .

٤ ـ العبادة طاعة لمن يراه مستقلاً واجب الطاعة ، وإن كانت هذه الطاعة لا تنطلق من قصد العبادة والعبوديَّة .

ويمكننا ـ عبر المقارنات اللغويَّة والاستفادة من القواعد اللَّفظيَّة وأُصول المحاورة ـ أن نرجِّح بعض هذه المعاني على بعضها الآخر أو أن نعتبره مفهوماً مشكّكاً يقبل الانطباع على كلٍّ هذه الحالات مع الاحتفاظ باختلاف الدرجات ، ولكن من الواضح أن قصدنا في هذا البحث ليس حل المسائل اللَّفظيَّة ، ونحن لا نستند في كون العبادة سبيلاً للتقرُب إلى الله إلى الأدلَّة النقليَّة ، وإنَّما نقول إنَّنا توصَّلنا ـ عبر المقدمات الوجدانيَّة والعقلية ـ إلى نتائج رأينا أن اسم العبادة والقرب يناسبها ، ورأينا أن ألفاظ الكتاب والسُنّة تقبل الانطباق عليها . وعليه ، فمن المناسب أن يستمرَّ البحث طبق ذلك الاسلوب ، فنعمد ـ عبر الاستناد للأمور التي صدقناها بشكل واضح ـ إلى توضيح هذا الموضوع .

والمواضيع التي تثبت لدينا ـ لحدّ الآن ـ والتي يمكنها أن تعيننا في حلِّ هذه المسألة هي :

١ ـ إن الإنسان موجود يجب أن يصل إلى كماله

النهائي عبر حركته الاختياريَّة ، وإن وصوله إلى هدفه الأصيل رهين اختياره الحر الواعي .

٢ ـ إنَّ القوى الطبيعيَّة والفطريَّة والإمكانات التي يتمتع بها هي وسائل يجب أن يستفيد منها للوصول إلى كماله النهائي ، وليس بينها ما لا أثر له على سيره التكاملي .

٣ ـ إن الهدف الأصليَّ للإنسان هو القرب إلى الله ، وإن حقيقة القرب هي الحصول الشهودي للتعلُّق والارتباط الوجوديِّ له بالله .

٤ ـ إن السير والحركة التي تتمُّ باتجاه مثل هذا الهدف سير باطني يبدأ من أعماق الروح والقلب الإنساني ولا ربط له مباشرة بالأمور الماديَّة .

وبملاحظة هذه المقدمات نستنتج :

أولاً : إنَّ التكامل الإنساني والوصول إلى القرب الإلهي منوطان بالنشاطات الإيجابيَّة المتقدِّمة ، ولا يمكننا أن نعدَّ الجهات السلبيَّة خطوات باتجاه الكمال . وعلى هذا فترك عبادة الأصنام وطاعة الطواغيت ، أو الاعتزال والانزواء وترك المعاشرة ، لا يمكنها جميعاً ـ لوحدها وبلحاظ جانبها السلبيِّ ـ أن تُعدَّ سبيلاً للقرب الإلَهيِّ .

ثانياً : إنَّ أيَّ نشاط لا يكون داخلاً في إطار المسيرة

التكامليَّة الإنسـانيّة إلاّ إذا كـانت له عـلاقة إيجـابية بـالهدف والكمـال النهائي لـلإنسان (أي القـرب إلى الله والحصول على التعلّق والإرتباط الوجودي له بالله) .

ثالثاً : إن مثل هذه العلاقة لا يمكن البحث عنها بشكل مبـاشـر إلاّ بين التـوجُّهـات القلبيَّـة والحـالات الـروحيَّـة والمعنويَّة ، وعلى هذا ، فإنّ أشدَّ العبادات أصـالةً هي تلك الفعّاليَّة التي يقوم بها القلب بشكل واعٍ حرٍّ للحصـول على المطلوب الفطريّ له .

رابعاً : يجب أن ترتبط سائر النشاطات الإنسانيَّة ـ بنحو ما ـ بهذا النشاط القلبيّ ليتسنّى لها أن تكون في إطار المسيرة التكامليَّة ، وإلاّ فإمّا أنه يجب تركها تماماً (ومثل هذا العمل ـ على فرض إمكانه ـ مخالف لحكمة وجود الجوانب الفطريَّـة ومستلزم لتحديد أرضيَّة التكامل الإختياري) وإمّا اعتبارها من اللوازم الإضطراريَّة والأجنبيَّةِ عن المسيرة التكامليَّة الإنسـانيَّة الأصيلة . وفي مثل هذا الحـال ، يجب جعل قسم مهمٍّ من الفعّاليات الحياتيَّة خارجة عن المسيـرة التكامليَّـة واليأس من إيصالها إلى الهدف ، وهذا أمر غير صحيح .

وعليه ، فالسبيل الصحيح الـوحيد هـو أن تتحوَّل كـلُّ الفعَاليات الحياتيَّة المختلفة في ظلِّ القصد والنية إلى عبادة ،

وتمنح وجهة تكاملية ، لكي لا تذهب أيّ من طاقات الإنسان هدراً من جهة ، وتتسع دائرة الاختيار والانتخاب إلى المستوى الذي أراده الله للإنسان وهيّأ له وسائله من جهة أُخرى .

ولقد ظنَّ بعضهم أنَّه لمّا كان السير التكامليُّ للإنسان يبدأ من القلب إلى الله فإنه يجب ترك كلِّ النشاطات الحياتيَّة ـ إلّا ما كان منها ضرورياً ـ واختيار مكان خلي يخلو فيه إلى ذكره وتوجُّهاته القلبيَّة دون أن تشغل باله أيّة رابطة بأيٍّ أحد . وهؤلاء وإن كانوا قد أصابوا في تشخيص الهدف والمسير الإجمالي ، إلّا أنهم أخطأوا في تشخيص الطريق الصحيح والاسلوب الناجع الذي ينتهي بهم إلى الكمال الإنساني الخاص (ومن مميِّزاته الشمول لمختلف الجوانب)فلم يلاحظوا الأبعاد المختلفة للروح الإنسانية .

وهنا ، يجب الإلتفات إلى أن الميزة الأساس للإنسان تكمن في اختياره الحرِّ لمسير سعادته ووصوله إلى كمال يسمو على كمال الملائكة ، وهو لا يتمُّ إلّا في مجال الأخذ والرد والتضادِّ الخارجي والصراع ، وإلّا في ظلِّ أنماط الجهاد والسعي الشامل . أمّا قلع جذور بعض الميول الفطريَّة أو قطع العلائق الاجتماعيَّة فهو ـ في الحقيقة ـ تحديد لدائرة الإختيار ، وتضييق لميدان الصراع ، وسد لكثير من سبل

الترقّي والتكامل .

ومن الـطبيعي أن لا نغفـل عن إختــلاف القـابليّـات والاستعـداد لـدى الأفـراد ، فعلى كـلٍّ فـرد اختيـار مجـالـه المناسب لظرفيَّته واستعداده ، فلا يمكن لأيٍّ طائـر أن يحلِّق كمـا يحلِّق النسـر ، وليس لكـلٍّ ريـاضي أن يصــارع بـطل العالم .

وعلى أيٍّ حـال ، فإنَّ السبيـل الصحيح للتكـامل هـو التنمية التدريجية المتوازنة لكلٍّ أبعاد الوجود .

دور العلم في تحقيق التكامل

عرفنا أن السيرة التكامليّة الإنسانيَّة إنما يسير فيها القلب ـ بشكل رئيس ـ فيتَّجه إلى الله في طريق العبوديَّة ، وتبعاً للأفعال القلبيَّة تتخذ سائر الفعاليات صفة العبوديَّة فتؤثِّر في تكامل الإنسان .

وهذا السير والسلوك القلبيّ إنما يبدأ إذا عرف الإنسان هدفه وسبيله إلى هذا الهدف ، ثم راح يخطو في هذا السبيل بإرادته واختياره ، فالشرط الأساس هو العلم والمعرفة . والآن ، فلنلاحظ محل العلم في السير التكاملي ، فهل هو كمال أم لا ؟ وإذا كان كمالاً ، فهل هو من الكمالات الأصلية ، أم من الكمالات النسبية أم المقدَّمية ؟

وتوجد حول تقويم أهميَّة العلم آراء مختلفة تتراوح بين

الإفراط والتفريط ؛ فبعضهم ، من قبيل الفلاسفة المشّائين ، يرى أنّ العلم والفلسفة ليسا مؤثرين في الكمال فحسب ، بل إنهما الأصل والغاية لكلِّ الكمالات الانسانيَّة . وكما قلنا من قبل ، فإنه يرى أنّ الإنسان الكامل هو من يملك العلم البرهانيَّ بكلِّ عوالم الوجود ، وفي قبال ذلك توجد مجموعة أُخرى تعتقد أنّ العلم الحصوليَّ لا ربط له بالكمال الإنسانيِّ ، وترى (ان العلم الرسميَّ كلّه قيل وقال) ولم يكتفوا بذلك المقدار وإنّما اعتبروه مانعاً من السير التكامليِّ ، بل وأسموه : « الحجاب الأكبر » .

ولسنا الآن في صدد نقد هذه الآراء أو تسويغها وتوجيهها والسعي وراء سبيل للجمع بينها ، وإنما نسعى - وفق أُسلوب هذا البحث وتبعاً للحقائق التي أثبتناها لحدِّ الآن - لنعرف الموقع الذي يمتلكه العلم في المسيرة التكاملية .

فبعد معرفة أن الكمال النهائي للإنسان هو القرب إلى الله تعالى والارتباط الشهودي بالخالق ، لا مجال للبحث في أنّ المرحلة الأخيرة للسير الإنساني هي من سنخ العلم الحضوري ، ومثل هذا العلم هو المطلوب الذاتي والكمال الأصيل بل هو غاية كلِّ الكمالات ، وإنما الكلام في العلم الحصولي الذهني ، وهنا يجب أن نقول :

طبقاً للتفسير الذي ذكرناه للكمال يمكن اعتبار العلم كمالاً للإنسان ، لأنّ العلم صفة وجودية يحصل عليها الإنسان ، وبواسطته ينتفي العدم والنقص ، ومن هنا ؛ فإن العلم مطلوب للانسان بالفطرة .

إلّا أننا أوضحنا أنه ليست كلٍّ صفة وجودية هي كمال للموصوف مطلقاً ، وإنما قد تكون الصفات الوجودية ـ أحياناً ـ كمالاً أصيلاً ، كما قد تكون كمالاً مقدّمياً ونسبياً ، وإنما تكون الكمالات النسبية كمالاً للموجود واقعاً إذا كانت وسيلة للوصول للكمال الأصيل ، فإذا استفيد منها من جهةٍ تنافي الكمال النهائي ، فهي وإن كانت بالنسبة لمراتبها الأدنى كمالاً ، لكنها مقدمة للنقص والانحدار النهائي .

إن العلوم الحصولية إمّا أنها نظرية ، وإمّا أنها عملية ، فأمّا النظرية منها فهي وإن لم تكن مرتبطة بشكل مباشر بالمسيرة إلّا أنّ بعضها ـ مثل العلوم الإلهية ـ لها دورها في مساعدة الإنسان لمعرفة الهدف . ومتى ما استعين بها للوصول إلى القرب الإلهيِّ فإنها تكون كمالاً مقدّمياً قيّماً .

أما سائر العلوم النظرية فهي وإن لم تكن مقدمة لمعرفة الهدف أو سبيل الوصول إليه إلّا أنها تستطيع أن تقدم عوناً جيداً لتحقيق المعارف اللازمة ، وذلك خصوصاً في مثل العلوم التي تكشف عن أسرار الخلقة وحكمها ، كما أنها

تستطيع أن تسدَّ الحاجات الحياتية التي لها ـ بدورها ـ قيمة مقدمية كماليّة ، وأنّ التوفُّر على النِعم يمكنه أن يشكل دافعاً للشكر وعبادة الله ، وبذلك ترتبط بالسعادة الحقيقيّة للإنسان . أمّا علاقة العلوم العمليّة بالسير التّكاملي ومقدماته فإنها لا تحتاج للتوضيح ، فمن الجليّ أنّ التكامل الواعي للانسان منوط بها .

وهناك نقطة يجب تأكيدها وهي : أنّ دور العلوم الحصولية كلّها في التقدم الحقيقيِّ للإنسان لا يعدو دور تهيئة الأرضيَّة وتوسعة الإمكانات ، وليس لها أيّ تأثير حتمي وضروري في السعادة الإنسانية . وعلى هذا ، فالعلم ـ بمعنى القضايا الذهنية ـ لا يمكن اعتباره كمالاً بالفعل للانسان من زاوية كونه إنساناً ، اللّهم إلاّ أن يكون وسيلةً للقرب إلى الله : امّا لمعرفة الله ، وإمّا لمعرفة الطريق إليه ، وللاستفادة من النِعم الإلهية ، لتحقيق الشكر أو لتحقيق مقدمات السير له وللآخرين .

وبملاحظة ما قلناه يتوضّح موقفنا تجاه المدرسة البرغماتيّة . وتوضيح ذلك أن أنصار هذه المدرسة (وهي بنفسها من مظاهر الأومانيّة) يعتقدون أن العلم والفنَّ إنما يمتلكان قيمة خاصَّة إذا كانا وسيلة للحياة الأفضل ، وأنّ ما له قيمة بالأصالة هو ما كان مفيداً للحياة .

وفي قبال هؤلاء نقول :

ليست الحياة الدنيويَّة ، ولا أنماط السعي لتحسين الحياة الفردية والاجتماعية ؛ ممّا يملك قيمة أصيلة لكي تكون للعلم والفن في ظلّها قيمة معينّة ، وإنَّما الشيء الوحيد الذي يمتلك قيمة بالأصالة هو القرب الإلهي ، وكلُّ شيء يشكل وسيلة للتقرُّب إليه يمتلك قيمة بمقدار تأثيره في التقريب إليه تعالى ، والإنسان المتكامل لا يضمُّه أيّ عنوان غير العنوان الإلهيّ ولا يقبل أيَّ اتّجاه إلاّ الإتجاه الإلهي ، ولا يرى الأصالة إلاّ لله لا غير:

﴿ ذلِك بأنَّ الله هُوَ الحَقُّ وأنَّ ما يَدعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الباطِلُ ﴾[72] .

وعلى هذا فلا تحصيل العلم ، ولا الحصول على الخبرة الفنيَّة ، ولا العمل الفردي ، ولا السعي الاجتماعي ، وليس أيٌّ منها ممّا يمتلك قيمة مطلقة ، وهي كلُّها إذا أُدّيت بعنوان العبودية لله تحصل على قيمتها في ظلّ الإرتباط به .

وهنا يمكن أن يقال : إن المدرسة البرغماتيَّة لم تكن ممّا يقبل القبول ، لأنها جعلت معيار التقويم « المنفعة للحياة

---

(٧٢) سورة الحج ، الآية : ٦٢ .

الدنيا » إلاّ أنّه يمكن قبول نوع من النزعات البرغماتيَّة بشكل أصالة العمل للحياة الأُخرويَّة . وعليه ، فالعمل المفيد للآخرة يمتلك أصالة نسبيَّة ، وان العلم والفنَّ لا يتمتَّعان حتى بهذا المستوى من الأصالة النسبيَّة .

إلاّ أنه يجب الإلتفات إلى أنّ جذور السعادة الحقيقيَّة تنمو في القلب ، لا في الأعضاء والجوارح ووسائل العمل ، وإنّ الدور الأساس للسير نحو الله يقوم به القلب . وعليه ، فالأصالة النسبيَّة هي للنشاطات القلبيَّة ، أمّا الأعمال الخارجيَّة فهي تكتسب قيمتها في ظلِّها ، لا العكس .

وكما يمكن للعلم أن يكون مقدّمة للأعمال الحسنة فيكتسب قيمة ، فإنه يمكنه أن يلعب دوراً أهم بعنوان كونه مقدمة للإيمان ، وهو بدوره مقدّمة العمل وأساس له .

العلاقة بين العلم والإيمان والعمل :

إن إعتبار الإيمان كتصديق ذهني هو بعينه إعتبار العلم ، وذلك ليس أمراً اختيارياً ، لأنّ بعض العلوم يدركها العقل بالبديهة ، وليس للإنسان أيّ اختيار في تحصيلها والتصديق بها ، وبعض العلوم ، وإن كانت تحصل ـ عادة ـ عبر مقدّمات اختيارية ، إلاّ أنّ الإختيار ليس مقوِّماً لها ، بمعنى أنّه من الممكن أن تحصل تلك المقدمات في الذهن

بسماع صوت أو رؤية خطٍّ ، وعندئذ يدركهـا الإنسان بـدون اختيار ويصدِّق بها ، نعم ، إذا كانت مقدِّمات العلم متحقِّقة بـالإرادة والإختيار فـلا بُدَّ وأن تكـون هناك دوافـع لتحصيلها وتركيبها ، وهـذه الدوافـع قد تكـون غريـزة الاستطلاع ، أو العمل على كسب مجد وفخر ، أو الاستفادة الماديَّة ، أو رضا الله ، وفي الحالة الأخيرة فقط تكون عبادة ، ولكنَّ مثل هذه العبادة يجب أن تسبقها ـ حتماً ـ معرفة الله .

إنّ المقصود بالإيمان الذي نركّز عليه في هذا البحث ، واعتُبـر في القرآن والنصـوص الدينيَّـة أساسـاً للسعادة ، هـو حقيقـة تختلف عن المعنى المقـابـل للكفـر والجحـود وعن المعرفة ، إذ ما أكثر أن يعرف الإنسان شيئاً ولكنَّ قلبه يرفض ولا يلتزم لوازم تلك المعرفة . ومن هنا فهو يخـالفه عمـداً ، وربَّما اقتضى الأمر أن ينكره بلسانه ، ومثل هـذا الإنكار مـع العلم أشدّ سوءاً من الإنكار مع الجهل ، وأكثر ضرراً بالتكامل الإنسانيِّ ، وهذا القرآن الكريم يصفهم :

﴿ وجَحَـدُوا بِهـا واسْتَيْقَنَتهـا أنفُسُهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُوّاً ﴾(٧٣) .

---

(٧٣) سورة النمل ، الآية : ١٤ .

وعلى لسان موسى (ع) وهو يخاطب فرعون يقول :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أنزَلَ هٰؤُلاء إلاّ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ ﴾[٧٤] .

في حين كان فرعون يقول :

﴿ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْري ﴾[٧٥] .

وهناك الكثير من أمثال فرعون ممن أنكروا ما يعرفون ، سواء في حياة الرسول الأعظم (ص) أو بعدها ، وما زالوا إلى يومنا هذا ، والسر النفسي لمثل هذا الإنكار هو أنّ الإنسان قد يرى أنّ الإقرار ببعض الحقائق يعني تحديد حرّيته وتحلُّله ، ومنعه من إشباع متطلّباته التي لا يستطيع قطع تعلُّقه القلبيَّ بها .

يقول القرآن الكريم :

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمَامَهُ ﴾[٧٦] .

وسنعطي بعض التوضيحات في هذا الصدد .

والنتيجة هي : انّ الإيمان عبارة عن قبول القلب للأمر

---

(٧٤) سورة الإسراء ، الآية : ١٠٢

(٧٥) سورة القصص ، الآية : ٣٨ .

(٧٦) سورة القيامة ، الآية : ٥ .

الذي صدّق به العقل والذهن ، والتزامه كلَّ اللوازم المترتّبة عليه ، وعزمه الإجماليّ على تنفيذ لوازمه العمليَّة ، فالإيمان منوط ومشروط بالمعرفة إلاّ أنه ليس هو العلم نفسه ولا اللازم الدائم له .

ومن هنا ، تتّضح العلاقة بين الإيمان والعمل ، ذلك أنّ الإيمان يقتفي العمل ولكنّه ليس العمل الخارجي نفسه ، وإنَّما هو سرُّه ومانحه وجهته ، وانّ الصلاح واللياقة والحسن الفاعلي للفعل منوط بالإيمان ، فإذا لم يستمد العمل وجوده من الإيمان بالله فإنّه لن يؤثِّر في السعادة الحقيقية للإنسان ، وإن كان عملاً صالحاً ، وكانت له منافع كثيرة في الدنيا للإنسان أو للآخرين :

﴿ وَالّذِينَ كَفَرُوا أعمَالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتّى إذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ ﴾[77] .

﴿ مَثَلُ الّذِينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ أعمالُهمْ كَرَمادٍ آشْتَدَّتْ بِهِ الرّيحُ في يَومٍ عَاصِفٍ لا يَقدرُونَ مِمّا كَسَبُوا على شيءٍ ﴾[78] .

---

(٧٧) سورة النور ، الآية : ٣٩ .

(٧٨) سورة إبراهيم ، الآية : ١٨ .

فالخطوة الأولى التي يخطوها الإنسان في سيره التكامليّ نحو الكمال النهائي ـ أي القرب لله تعالى ـ هي الإيمان ، وهذه الخطوة أساس الخطوات التالية ، وروح كل مراحل الاستكمال .

أمّا الخطوة التالية في السير التكامليّ الإنسانيّ فهي النشاط الذي يقوم به القلب بعد الإيمان بالله ، بغضّ النظر عن الأعضاء والجوارح ، أي التوجُّه لله ، وهو ما يعبِّر عنه بذكر الله .

﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٧٩] .

وكلّما قوي هذا التوجُّه وتمركز أكثر كان أشدَّ تأثيراً في التقدّم الإنسانيِّ ، وقد تكون لحظة من التوجُّه القلبيِّ التامّ أكبر تأثيراً من سنين من العبادة البدنيَّة .

والخطوة الثالثة : هي الأعمال الباطنيَّة الأُخرى التي يؤدِّيها الإنسان باسم الله ، مثل التفكير في آياتِ الله وعلائم قدرته وعظمته وحكمته ، وإن استدامة الذكر والفكر لها أثرها في هيام القلب وحبِّه وتعلُّقه :

﴿ الّذِينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ

---

(٧٩) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .

ويَتَفكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ ﴾[٨٠] .

بعد هذا تُقبَل التوبة للأعمال البدنيَّة المختلفة ، وبعبارة أخرى ؛ إنّ العزم الاجمالي ـ وهو من لوازم الإيمان ـ يتجلّى في مظاهر مختلفة وفي قالب الإرادات التفصيليَّة والجزئيَّة ، وهذه الإرادات ـ وهي من زاوية معيَّنة فرع الإرادة الأصليَّة ـ توجب تقوية ذكر الله والإيمان به :

﴿ أقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري ﴾[٨١] .

﴿ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[٨٢] .

وكذلك ، فإنّه إذا كانت هناك إرادة على خلاف مقتضى الإيمان فإنها تؤدِّي إلى ضعف الإيمان . إذن ، فالعلاقة بين الإيمان والعمل هي تماماً مثل العلاقة بين جذر النبات والأعمال النباتيَّة ، فكما أنّ امتصاص المواد الغذائيَّة مفيد ومؤثّر في نموِ الجذر واستحكامه وقوته وانّ امتصاص المواد السامَّة المضرَّة موجب لضعفه وبالتالي ذبوله وموته ، فإنّ الأعمال الصالحة عامل مؤثّر في دوام الإيمان واستحكامه ،

---

(٨٠) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .
(٨١) سورة طه ، الآية : ١٤ .
(٨٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

والأعمال السيِّئة وارتكاب الذنوب موجبة للضعف ، وبالتالي موت جذور الإيمان :

﴿ فَأعقَبَهُمْ نِفَاقاً في قُلُوبِهِمْ إلى يَوم يَلقَونَهُ بما أخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبما كَانوا يَكْذِبُون ﴾[٨٣] .

﴿ ثُمَّ كان عاقِبَةَ الّذينَ أساؤُوا السُّوأى أنْ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ وكانُوا بِها يَسْتَهزِئُون ﴾[٨٤] .

---

(٨٣) سورة التوبة ، الآية : ٧٧ .

(٨٤) سورة الروم ، الآية : ١٠ .

دور الإرادة الإنسانية في تحقيق التكامل

تدبير الإرادة :

عـرفنا من البحـوث الماضيـة حقيقة الكمـال النهـائيِّ وهـدف السير التكـامليِّ لـلإنسـان ، وكـذلـك عـرفنـا الخطَّ العـريض والأُسلوب العـام للسيـر والسلوك ، أمّـا الخــطوط التفصيليَّة والدقيقة لذلك فهي متروكة لعلم الأخلاق والفقه ، وإنَّما نريد الحديث عن المرحلة الأخيرة لهذا البحث ، وهي الحديث حول تدبير النفس للسير في سبيل التكامل .

ونعني بذلك أننا نحاول معرفة الأمر التالي :

كيف نستطيع تحقيق المقدَّمات اللازمة لاتخاذ الإجراء القاطع وامتلاك الإرادة الجادَّة للسير في سبيل العبادة والقيام

بواجبات العبوديَّة ؟ إننا نعلم أنه توجد في كلِّ موجود حيٍّ ميزتان أساسان هما : « الإدراك » و« الحركة الإرادية » ، ومجموعهما يعبّر ـ حسب المصطلح المنطقيّ ـ عن الفصل والميزة الجوهرية للإنسان .

وتوجد هاتان الخاصِّيتان أيضاً بشكل أوسع وأعمق وأعقد في الإنسان ، باعتباره موجوداً حيّاً متميِّزاً ، وتشكِّلان جهازين مشتركين للروح والبدن :

أحدهما ، جهاز الإدراك .

والثاني ، جهاز الإرادة .

ولمّا كان هذان الجهازان مرتبطين وملتحَمين تمام الإلتحام ، فقد اشتبه أمرهما حتى على بعض العلماء المدقِّقين . ولكي نعي كيفيَّة حصول الإرادة وارتباطها بجهاز الإدراك ، من المستحسن ـ مقدّمةً ـ أن نلقي نظرة على أنواع الإدراكات ، والدوافع ، والجواذب التي تشكّل منبعاً لحصول الإرادة .

لقد درس الفلاسفة والعلماء ـ منذ القدم ـ الإدراكات والغرائز الإنسانيِّة وقسَّموها إلى أقسام مختلفة ، ونحن هنا نغضُّ النظر عن البحوث العلمية المصطلحة والاستنتاجات ، ونكتفي بمطالعة سريعة في تفاعلاتنا الروحيَّة حول الإدراك ،

وكـذلك متـطلَّبات الإرادة وكيفيَّـة بعثهـا ، وحصـول الفعـل الإراديّ ، لكي نحصـل على المعارف الـلازمة لبنـاء النفس وتوجيه أعمالنا الوجهة الإلٰهيَّة الصحيحة .

جهاز الإدراك :

يتحقق الإدراك في الإنسان بصور مختلفـة نشير إليهـا إجمالاً : فهناك مجموعة من الإدراكات تحصل عبر تفاعلات فيـزيوكيمـاوية أو فيـزيولـوجية خـاصَّة بين المـواد الخارجيَّـة والأجهـزة الحسيَّـة ، مثـل : الـرؤيـة ، والسمـع ، والشمّ ، والذوق ، واللَّمس .

وهناك مجموعة من الإدراكات الجزئيَّة تحصل دون أن يكـون هنـاك أيُّ تمـاس للمـواد الخـارجيَّـة بـالبـدن ، مثـل الإحساس بالجوع والعطش .

وهناك مجموعة ثالثـة من إدراكاتنـا تحصل في الـذهن وبواسطة القوى النفسيَّة الخـاصَّة ، ولهـذه الإدراكات أنـواع مختلفـة ، والتحقيق في هذه الأنـواع والمشخَّصات والقـوى المتعلِّقـة بها وكـذلك ارتبـاطها أو عـدم ارتبـاطهـا بـالجهـاز العصبي ؛ أمرٌ لا يتسع له صدر هذا البحث .

وإنّما نؤكد أنّنا نجد ـ إجمالاً ـ في أنفسنا مدركات تبقى بشكـل مـا في الـذهن بعـد أن تنقـطع الصلة بين حـواسّنـا

والخارج ، وقد تعود بعد الغفلة أو النسيان ـ من جديد ـ إلى الخاطر ، وتنعكس في شاشة الذهن الواعية ، وهكذا مدركات الحسّ الباطنيّ ، والحالات الإنفعاليّة ، وسائر الأمور الإدراكيّة .

والنوع الآخر من نشاطات الذهن يرتبط بدرك المفاهيم الكليّة التي تتحقّق عبر تجريد الإدراكات الجزئيّة أو بصورة أُخرى ، ويشبه هذا إيجاد المفاهيم الخاصّة التي يعبَّر عنها بـ « المعقولات الثانية » مثل مفهوم الوجود والعدم والوجوب والإمكان . وهناك نوع آخر من الفعّالية الذهنية في مسألة الإدراك ، وهو تركيب القضايا وبناؤها بايجاد نوع من الوحدة بين المفاهيم المتعدِّدة ، وكذلك عبر تركيب قضيَّتين نصل ـ مع ظروف وشروط خاصة ـ إلى إدراك قضية أُخرى تسمى « نتيجة البرهان » .

هنا يجدر بنا أن نطرح توضيحاً مختصراً حول القضايا :

تقسّم القضايا الذهنيَّة من زاوية معيَّنة إلى : بديهيَّة واكتسابيَّة ، ومن زاوية أُخرى إلى : نظريَّة وعمليَّة ، وتنسب الإدراكات النظريَّة ـ عادة ـ إلى (العقل النظري) ، والإدراكات العملية إلى (العقل العمليّ) ، ويعتبرون العقل العمليّ قوَّة تصدر الأوامر وتحرِّك الإرادة ، وقد يتصور أن الإرادة مرتبطة بالعقل العملي وحتى يقال إنها معلولة له .

في حين أنه ثبت في محلِّه أن العقل النظري والعقل العمليّ ليسا قوتين منفصلتين عن بعضهما ، وأنه ليس هناك أيُّ تفاوت جوهري بين الإدراك العملي والإدراك النظري ، وأنّ عمل العقل في مسألة الإدراك العملي هو نفسه ، بخصوص الإدراكات النظرية ، بمعنى أنّ العقل يدرك العلاقة بين الفعل ونتيجته تماماً كما يدرك علاقة العلِّية بين الأسباب والمسبِّبات ، والحركة والغاية ، وأنّ هذا الإدراك عندما يصبّ في قالِب المفاهيم الاعتبارية بمعونة القوى التي تصوغ المفاهيم في الذهن يتَّخذ لنفسه شكل الأوامر العقليَّة ، وإلّا فإن عمل العقل - في الواقع - لا يعدو الإدراك ، وليس له أيُّ علاقة مباشرة بالإرادة والبعث والتحريك ، وما ينسب للعقل في مجال أفعال الإنسان من (ينبغي ولا ينبغي) هي - في الواقع - كمثل الأمور التي يتحدث علماء العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة عن أنها (تنبغي أو لا تنبغي) في مجال بيان قوانين هذه العلوم .

وهناك نوع آخر من الإدراك يتوفَّر عند الجميع وهو عبارة عن العلم الحضوري لنا بأنفسنا ، وقوانا ، وأفعالنا ، ووسائلنا البدنيَّة ، وتأثيراتنا العصبيَّة ، ويوجد أيضاً نوع من الإدراك الحضوريّ بالنسبة للمبادىء العالية للمبدأ الأعلى ، وهو يحصل في البدء لدى الأفراد العاديِّين بشكل لا

شعـوري ، لـذا يجب السعي الأكيـد لإيصـالـه إلى مـرحلة الشعور .

وتوجد ـ عدا هذه الإدراكات العامَّة المعروفة ـ ادراكات أُخــرى مثـل « التلبــاثي » والعلوم التي تؤخــذ من الجنّ أو الأرواح ، أو تعـطى في حال التنـويم المغناطيسي وأمثـاله ، والتي تؤدِّي إلى معلومــات لـدى المــرتـاضين ، وكــذلـك الوساوس الشيطانيَّة والإلهامات الملائكيَّة والرحمانيَّة .

وفـوق كلٍّ هـذه الإدراكات هنـاك الوحي النـازل على الأنبياء (ع) من قبل الباري تعالى ، ويشبهه الإلهام والتحديث الـذي يخصُّ به سـائر العبـاد الخلّص ، من قبيـل تبشيـر أُمِّ موسىٰ (ع) برجوع ولدها ووصوله إلى مقام الرسالة ، وكذلك الأمـور التي ألقيت إلى مـريم (ع) ، والعلوم التي ألهمَ بهــا الأئمَّة المعصومون من أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) ولا يعرف حقائقها إلاّ من يتلقونها . وعلاوة على هـذا يمكن أن نذكر كلَّ الإدراكات والصور الحاصلة في الـذهن دون أن يصحبهـا أيُّ تفسير منـطقي وفلسفي ، مثل كـلٍّ الـوسـاوس الشيـطانيَّة التي قـد تغزو أذهـاننا ونعـرف نتائجهـا عيانـاً في أنفسنا ، ولا نعرف ماهيَّتها ، والسبيل العامّ للتصديق بأصـل هذه الإدراكات وكيفيَّـة حصولهـا ـ بغضِّ النظر عن مشـاهدة آثارها ـ عبارة عن التعبُّد بقول المعصوم (ع) ، أو نقل أولئك

الذين تلقّوها ونحن نعرف صدقهم في ما ينقلون .

جهاز الإرادة :

توجد في الإنسان ميول وجواذب ودوافع تشكِّل بمجموعها سرَّ حصول الإرادة والحركة الإراديَّة . وقد درس علماء النفس أنواعاً كثيرة من الميول الطبيعيَّة والفطريَّة ، وقسَّموها إلى أنواع متعدِّدة ، ولهم إختلافات في عددها وكيفيَّة تصنيفها ، ونحن هنا نتعرَّض إلى ذكر الدوافع والميول التي نحسُّها وجداناً (دون التقيّد باصطلاح أو متابعة لمدرسة خاصَّة) .

فبعض هذه الدوافع له علاقة واضحة بالتفاعلات الكيمياويَّة والفيزيولوجيَّة للبدن ، مثل ميول الأكل والشرب ، وهي تصاحب حياة الإنسان منذ الولاة إلى الموت ، وهي تُثار عند احتياج البدن للمواد الغذائية والمائيَّة . وهكذا نجد الميل الجنسي الذي يظهر على أثر ترشُّح الهرمونات الخاصَّة ، ويكون ذلك بعد سنِّ البلوغ .

وهناك مجموعة أُخرى من الدوافع تعقبها حالات بدنيَّة خاصَّة ، بحيث يتصوّر ذوو النظر السطحيِّ من الناس أنَّ هذه الدوافع النفسيَّة هي كالحالات البدنيَّة ، مثل الميل إلى الدفاع والإنتقام ، الذي يبدو بشكل غضب ظاهر تتغيَّر فيه

ملامح الوجه وتنتفخ فيه الأوداج ، ومثله الميل للفرار من الخطر ، ويُعدُّ نوعاً من الدفاع .

وهناك مجموعة أُخرى من الدوافع تشكِّل (العواطف) وأهمُّها العواطف العائليَّة والاجتماعيَّة .

ومن غرائز الإنسان : غريزة حبِّ الإطلاع ، والبحث عن الحقيقة ، وهي تدفع الإنسان إلى كشف المجهولات ومعرفة الواقع . وهناك غريزة طلب الإقتدار والتسلط وتوسيع دائرة النشاط . كما أنَّ هناك نوعاً آخر من الغرائز يرتبط بالحصول على المراكز الإعتباريَّة ، من قبيل : الجاه ، والمقام ، والإستقلال في الشخصيَّة .

وهناك نوع آخر من الميول الفطرية ترتبط به انماط الجمال والكمال الظاهريَّة والمعنويَّة ، وهي تحرِّك الإنسان نحو الحصول على أنواع الكمالات وأنماط الجمال القابلة للإكتساب ، والإرتباط والتعلُّق بالأشياء الكاملة والجميلة ، والخضوع أمام الكمال والجمال الأصيل .

ويمكننا أن نعتبر (حبَّ الذات) أُم الغرائز الإنسانيَّة ، وتنقسم ـ ابتداءً ـ إلى قسمين رئيسين : « حفظ الوجود » و« الحصول على الكمالات الممكنة » . وينشعب « حفظ الوجود » بلحاظ تعلّقه بالفرد أو النوع ، وبلحاظ إشباعه

للاحتياجات ودفع الأخطار ، إلى الميل للأكل والشرب ، والشهوة الجنسيَّة ، وحسِّ الدفاع والفرار من الخطر ، والانتقام ، والعواطف العائليَّة والاجتماعيَّة .

وكذلك يشمل (تحصيل الكمالات) غرائز الاستطلاع ، والاقتدار ، وطلب الجاه وحبَّ الكمال والجمال .

وينبغي ألّا يظنَّ أحدٌ أنّ ما ذكرناه يشمل كلَّ الغرائز والميول الإنسانيَّة ، كما لا ينبغي أن يؤدِّي بنا تصنيفها إلى توهُّم أنَّها أُمور منفصلة عن بعضها في مقام التأثير ، إذْ أنّ من الممكن أن تتدخَّل عدَّة من الغرائز في تحقيق عمل واحد .

وهناك نقطة أُخرى ينبغي التذكير بها ، وهي أنّ فصل الميول والدوافع عن العلوم والإدراكات لا يعني إنكار دخولها في مجال الشعور الإنساني ، لأنّ من البديهيِّ أن هذه الجواذب والحالات النفسيَّة ليست مثل القوَّة المغناطيسيَّة التي تعمل دون إدراك أو شعور ، وإنّما المقصود من ذلك التفريق بين جهاز الإدراك المحض وجهاز الإرادة ، من زاوية وجود الدفع والجذب في الجهاز الثاني وعدمه في الجهاز الأوَّل ، ومعرفة العلاقة بينهما لكي نحصل على معرفة أكبر بالنسبة للظواهر النفسيَّة للتدبير والسيطرة .

علاقة جهاز الإدراك بجهاز الإرادة :

إن حصول أيٍّ ميل مسبوق بإحساس خاص ، لـه معه سنخيَّة وتوافق ، فالميل نحو الغذاء والماء مسبوق بـإحساس الجوع والعطش مثلاً ، ولشدَّة هذا الترابط يحسُّ الإنسان بأنها حالة واحدة .

كمـا أنّ إشباع هـذه الميول والإحتيـاجات الغـريـزيَّـة متوقِّف على إدراكات متناسبة ، أمّا تأثيـر جهاز الإدراك على جهاز التحريـك في مثل هـذه المرحلة فهـو واضح إلى حـدٍّ كبير ، ويمكن أن تتعاون في إشباع ميل خاص قوىٰ إدراكيَّـة متعددة وفي مجال واسع ، فإنّ مجرد التركيز على عملية طبخ وجبة غذائية بالوسائل العاديـة اليوم يـوضح مـدى الفعاليـات الإدراكية الواسعة (الحسيَّة والخياليَّة والفكريَّة) التي تجـري لتحقيق هذا الهدف ، إلاّ أنّ رابطة هذين الجهازين لا تنحصر بهذين المجالين ، وانما هناك نوع آخر من الترابط بينهما لـه أهميَّة خاصَّة بالنسبة لبحثنا هذا ، وهو عبارة عن تأثيـر بعض الإدراكات في تحريك الميل والإرادة أو النفور والإشمئزاز ممّا لا تُعرَف بينهما رابطة طبيعيَّة ، فقد تؤدِّي رؤية منظر خاص أو سماع صوت معيَّن أو الإحساس برائحـة إلى تحريـك الميل نحو الغذاء أو الشهوة الجنسيَّة أو غير ذلك من الميـول ، في حين يؤدِّي لون أو طعم أو رائحة خاصَّة ، إلى نفور واشمئزاز

خاص بالنسبة إلى غذاء أو شيء آخر .

وإنّ تأثير بعض هذه الأمور قد يكون عادّياً واضحاً إلى حدٍّ يظنُّ معه الإنسان بوجود علاقة طبيعيَّة مع تحريك الميل هذا ، مثل الإحساس برائحة طعام وتحرُّك إشتهاء الإنسان له ، في حين نجد تأثير بعضها الآخر خفيّاً إلى حدٍّ يظنُّ معه الإنسان أن بعض الميول تحصل إتفاقاً ودون سبب أو يتحيَّر في تعليل حدوثها .

إن معرفة مثل هذه الروابط لها أهميَّتها الخاصَّة لتحقيق هدفنا المنشود ، ذلك لأنَّ التركيز عليها يؤدّي إلى أن ندرك أنَّه قد تكون نظرة واحدة أو سماع صوت ما ذا تأثير عجيب في مستقبل الإنسان ، وكيف تحرِّك ميلاً أو إرادة تؤدي إلى سعادة الإنسان أو شقائه .

وسرُّ هذه العلاقة يكمن في تداعي المدركات والمعاني ، بمعنى أنّ الذهن الإنسانيّ خُلِقَ بحيث يؤدِّي تقارن صورتين فيه بشكل متكرِّر إلى أن يتذكَّر إحداهما عند حصول الأُخرى ، فلو كان يكرر أكل طعام برائحة وطعم خاصَّين فإنّه بمجرَّد الإحساس بتلك الرائحة يحس بالطعم أيضاً ، وتتحرك شهيَّته نحو هذا الطعام .

ولو بحثنا عن علل حدوث إرادتنا عرفنا دور الإدراكات

الحسيَّة المهمّ ـ خصوصاً المنظورات والمسموعات ـ في تخيُّلاتنا وأفكارنا ، وعرفنا آثارها في صدور الأفعال الإراديَّة .
ومن هنا ، نستنتج أنّ أفضل وسيلة لتدبير الميول والاحتياجات ، وبالتالي التسلُّط الأكثر على النفس ، والإنتصار على أنماط الهوى النفسي والوساوس الشيطانيَّة هو ؛ السيطرة على الإدراكات ، وقبل ذلك السيطرة على العين والسمع :

﴿ إنَّ السَّمْعَ والبَصَر وَالفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[85] .

كما أنّ من أفضل وسائل تحريك الإرادة الخيِّرة هي : معاشرة الأشخاص الصالحين وسماع قصصهم ، وقراءة القرآن ومطالعة الكتب المفيدة وزيارة المعابد والمشاهد والأمكنة التي تذكّر الإنسان بالله والعباد الخلّص ، والأهداف المقدَّسة ، والسبل التي طووها في سبيل ذلك .

﴿ فيهِ آياتٌ بيِّناتٌ مَقامُ إبراهِيمَ ﴾[86] .

ومن هنا تبدو الحكمة في كثير من الأحكام الواجبة

---

(85) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .
(86) سورة آل عمران ، الآية : ٩٧ .

والمستحبَّة أو المحرَّمة والمكروهة ، مثل الحجِّ وزيارة المشاهد المقدَّسة ، أو غضِّ النظر عن المناظر المثيرة للشهوة ، وكراهة الجلوس في مكان فيه حرارة ناتجة من جلوس المرأة الأجنبيَّة .

وكذلك أهميَّة الدور الذي يلعبه الصديق في السعادة والشقاء الإنساني .

قال تعالى :

﴿ يَا وَيلَتَىٰ لَيتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي . . . ﴾[٨٧] .

وفي الحديث الشريف :

(إذا أراد الله بعبدٍ خيراً رزقه خليلاً صالحاً ؛ إن نسي ذكَّره وإن ذكر أعانه) .

(قالت الحواريّون لعيسىٰ ابن مريم (ع) يا روح الله ! من نجالس ؟ قال: من يذكِّركم الله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقه ، ويرغِّبكم في الآخرة عمله)[٨٨] .

وكذلك التأثير الذي تملكه أعمال الإنسان وأقواله في

(٨٧) سورة الفرقان ، الآيتان : ٢٨ و٢٩ .
(٨٨) الكافي : ج١ ص٣٩ .

الآخرين ، والدور الذي يلعبه سلوكنا كنموذج في السعادة أو الشقاء للعائلة أو المجتمع .

ومن هنا ، تترتّب علينا مسؤولية أُخرى :

(كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم) .

دور الميل والرغبة في الإدراك :

إننا نملك حرية الاستفادة من القوى والوسائل الإدراكيَّة إلى حدٍّ كبير ، فمتى شئنا حدَّقنا في منظر معيَّن ورحنا نتفرَّج ، ومتى شئنا غضضنا النظر عنه . وهنا يمكن أن نتصوَّر أنه عند إنفتاح العين ووجود النور فليست هناك حالة منتظرة لرؤية الشيء الذي يتمثّل أمامنا ، في حين أنّ الحقيقة تثبت خلاف هذا التصوُّر ، ذلك أنه في كثير من الأحيان نجد أنفسنا لا نرى الشيء رغم انعكاس صورة المرئي في العين ، أو رغم إرتعاش طبلة الأذن بواسطة أمواج الصوت ، لكنها لا تسمع شيئاً ، وذلك عندما يتركَّز إنتباهنا على شيء آخر .

ومن هنا ، يتّضح أنّ الإدراك ليس ظاهرة فيزيائيَّة أو عملاً فيزيائياً فحسب ، وإنّما هو في الواقع عمل النفس ، فإذا توجَّهت النفس حصل الإدراك وإلاّ انتفى . أمّا الإنفعالات الماديَّة فهي تشكل شرائط الإدراك ومقدّماته ، ثمَّ إن وجود التوجّه وعدمه ـ يرتبط في كثير من الأحيان ـ بالميل

والشوق الباطني للإنسان ، بمعنى أنه حين يميل الإنسان إلى إدراك خاص فإنّ توجه النفس يتّجه نحوه ، ويحصل الإدراك مع وجود الشرائط اللازمة ، في حين أنه على العكس من ذلك ؛ عندما لا يوجد الميل لا تتوجّه النفس ولا تدركه بالتالي . فمثلاً قد يرتفع صوت طفل من زاوية فلا تسمعه إلاّ أمّ الطفل ، حتى أنّها قد تنهض من نومها على صوت بكاء طفلها ، ولكنها لا تنهض على صوت أعلى من شخص آخر ، وليس هناك أيُّ سبب سوى العامل النفسي وشوق الأمومة ، ولا ينحصر تأثير الميل والشوق في الإدراك بالإدراكات الحسيَّة ، وإنَّما يتوفَّر في التخيّلات والأفكار ، وحتى أنه يتوفَّر في الاستنتاجات العقليَّة بصورة مختلفة .

فمثلاً ؛ يجد الإنسان نفسه ذا ذاكرة قويَّة بالنسبة للأشياء التي يميل إليها بشكل أقوى ، وتتقدّم النشاطات الفكريَّة في مجال الموضوعات التي يألفها ويرتاح إليها الشخص المفكِّر بشكل أحسن . والأعجب من ذلك أن الكثير من الأشخاص يصلون إلى النتائج الفكريَّة التي كانوا يرغبون فيها قلبيّاً ، فهم يُلهَمونها ، ولكنهم يظنُّون أنَّهم وصلوا إليها بشكل طبيعي ومن خلال إستدلال عقلي ، في حين كان للميل الباطني لهم الأثر الكبير في اختيار مقدَّمات الدليل ، أو في كيفيَّة تنظيمها ، وربَّما أوجبته المغالطة :

﴿ بَل يُريدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ ﴾[89] .

وتـوضيح ذلـك : أنّ عدم ميـل الإنسان للوصـول إلى نتيجة فكريَّة ما يراها تتنافى مع متطلَّباته قد يوجب غفلته وعدم تفكيـره فيها ، وقـد يـوجب الغفلة عن المقـدَّمـات الـلازمـة للإستدلال أو الشكل الصحيح لتنظيم المقدِّمات ، وفي حالة مـا إذا وصل إلى هـذه النتيجة التي لا يـرغب فيها ـ وخـلافاً لرغبته الشخصيَّة ـ فإنه يبدأ بـالتشكيك وإيجـاد الشبه في مـا توصَّل إليه ، فإذا كان الدليل واضحاً تماماً لا يبقي أيّ مجال للشبهة يصل الدور إلى خيانة الذاكرة ، فما أسرع ما يسلِّمها الإنسان للنسيان ، ولو حصل أنَّ عاملاً ما ذكَّره بها فإنّه سيمتنع عن التسليم القلبي والإيمان بها وينكرها بكلٍّ لجاجة ، وذلك كما أشرنا ـ من قبل ـ إلى مثل هذا في مقام التفريق بين العلم والإيمان :

﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَنَّ وَما تَهوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهدىٰ ﴾[90] .

وعلى هذا ، فإنَّ الإنسان متى ما صان نفسه عن الوقوع

---

(٨٩) سورة القيامة ، الآية : ٥ .

(٩٠) سورة النجم ، الآية : ٢٣ .

تحت تأثير الميول المخالفة إطمأنّ إلى نتائجه الفكرية ، وإلا فما دام الهوى هو الذي يمسك بالزمام فـإنّ الميل للمـاديّات والشهوات والجاه والمقام وباقي المتطلّبات الجـامحة سـوف يجلب تـوجُّه النفس إليهـا ، ويقلُّ الأمـل في الـوصـول إلى استنتـاجات صحيحـة من النشاطـات الذهنيَّـة والفكـريَّـة في المجالات المتعلِّقة بذلك .

وفي مجال العلم الحضوريِّ والتوجُّه إلى الوجدانيّـات يوجد للميول والأشواق القلبيَّة دور مهمٌّ ، فالحـالات النفسيَّة والإنفعالات الروحيَّة الحاضـرة لدى النفس قـد تدخـل عالم اللاشعور على أثر إنعطاف التوجُّه النفسي عنها ، فيغفل عنها الإنسـان ، فلا يكـون لـديـه ـ كمـا يعبِّـر الفـلاسفـة ـ العلم بالعلم ، وكذلك تلك المرتبـة التي تملكها النفس من العلم الحضوري بالله تعالى ، فقد تغفل عنها إثر الإنشداد للماديّات والتعلُّق بها ، اللّهم إلاّ إذا انقطعت الوسائل الماديَّة المعيقة .

وعلى هذا ، فإنَّ الإستثمار الصحيح للقـوى الإدراكيَّة إنَّمـا يتيسَّر إذا كـان القلب طاهـراً من أنماط الـدرن المادي والهوى النفسي ، والذهن خالياً من الأحكام السابقة ، متزيِّناً بالتقوى المنـاسبة ، فـالتكامـل في مدارج التقـوىٰ هو الـذي يصـوغ الإنسان مستعـدّاً لتلقّي الأنوار المعنـويَّة والإلهـامات الملائكية والربّانيَّة :

﴿ إنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقى السَّمْعَ وَهوَ شَهِيدٌ ﴾(٩١) .

﴿ ذلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمَتَّقينَ ﴾(٩٢) .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها ﴾(٩٣) .

﴿ إن تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ﴾(٩٤) .

﴿ يا أيّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَآمِنُوا بِرَسُولِه يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ . . . ﴾(٩٥) .

وفي قبال ذلك يصبح اتّباع الهوى النفسي والتعلّق بالدنيا سبباً للإنخداع والضلال والحرمان من إدراك الصحيح ، بل سبباً للتسلّط الشيطاني ، ومزيداً من الجهل والضلال والجهل المركّب وعمى القلب :

﴿ أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ وَأضَلَّهُ الله على عِلم

---

(٩١) سورة ق ، الآية : ٣٧ .

(٩٢) سورة البقرة ، الآية : ٢ .

(٩٣) سورة الشمس ، الآيتان : ٩ و١٠ .

(٩٤) سورة الأنفال ، الآية : ٢٩ .

(٩٥) سورة الحديد ، الآية ٢٨ .

وخَتَمَ على سَمعِهِ وَقلْبِهِ وَجَعَلَ علىٰ بَصَرِهِ غِشاوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[٩٦] .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فإنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهديهِ إلى عَذابِ السَّعِيرِ ﴾[٩٧] .

﴿ ومَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ ويَحْسَبُونَ أنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[٩٨] .

الإرادة والاختيار :

عند التوجّه إلى القوى الإدراكيَّة والتحريكيَّة المختلفة ، وكيفيَّة تأثيرها وتأثُّرها : تتَّضح كيفيَّة حصول مبادىء الإرادة في النفس ، وكيف يحصل الفعل الإرادي ، بمعنى أنّ الإنسان بادىء ذي بدء يحسُّ في نفسه نوعاً من الحاجة فيتألَّم لذلك ، أو يجد نفسه خالية من لذَّة معروفة فيسعى نحوها ، والإحساس بالألم أو انتظار اللَّذَّة يحرّكه للسعي ليشبع ـ عبر القيام بعمل ما ـ جوعته ، وليرفع ألمه ، ويضمن لذَّته المنشودة .

---

(٩٦) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

(٩٧) سورة الحج ، الآية : ٤ .

(٩٨) سورة الزخرف ، الآيتان : ٣٦ و٣٧ .

إذن ، فأعمال الإنسان ـ فطرةً ـ تتَّجه نحو رفع النقص وتحصيل الكمال ، والدافع نحوها هو رفع الألم أو الحصول على اللذَّة المطلوبة ، وذلك سواءً كان العمل فعّاليَّة نفسيَّة أو ذهنيَّة محض ـ مثل توجُّه القلب والفكر ـ أو كان متوقّفاً على تحريك العضلات والأجهزة البدنيَّة عبر الاستفادة من المواد الخارجيَّة ، أو بدون ذلك .

وإذا لاحظنا الأعمال التي يؤدِّيها الإنسان لصالح غيره نجده فيها ـ أيضاً ـ يندفع للحصول على لذَّته هو ، وإن كان ألمه أو التذاذه لتألُّم الآخرين والتذاذهم . ومن الطبيعي أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحصل على كلِّ ما يتمنّاه ، لأنّ موفَّقيته في ذلك ـ بالإضافة للزوم حصول الظروف الخارجيَّة المطلوبة ـ مرهونة بسلامة قواه الإدراكيَّة وصحَّة تشخيصه ، وكذلك المعرفة الصحيحة لكيفية رفع نقائصه ، ومدى إستفادته من القوى ، وقدرته على التصرُّف في المواد الخارجيَّة . فإن التفات الإنسان قد يحصل تارة بشكل طبيعي وعلى أثر التفاعلات البدنيَّة ، مثل الإحساس بالحاجة للطعام والشراب ، وأُخرى على أثر المماسَّة مع الخارج ، مثل مشاهدة وضع خطير يوجب فراره أو استعداده للدفاع ، أو تؤدِّي به رؤية منظر مُثير للعواطف إلى التأثُّر الشديد ، لكي يتألَّم من محروميَّة الآخرين ، ويعمل على مساعدتهم .

وفي الأمـر الأول ربَّما أدَّت العـوامل الخـارجيَّة بنحـو التداعي إلى ظهور الميل المكنون ، وذلك كما أوضحنـا من قبل ، كما أنَّ العـوامل الخـارجيَّة يمكنهـا أن تلعب دوراً في إيقاظ الميول الفطريَّة والجواذب النفسية المحض ، فإنّ دعوة الأنبياء توقظ الدافع الفطريَّ للإيمان بالله بعد أن غطَّتها عوامل الغفلة ، وهكـذا نجد رؤيـة آثار الله وسمـاعهـا تمتلك الأثـر نفسه .

ولـو أنّا فـرضنـا أنّـه كـانت هنـاك غـريـزة واحـدة قـد استيقظت ، ووجد ميل واحد في النفس ، فإنّ الإنسان سوف يتحرَّك في سبيل إشباعه ، وفيما إذا توفَّرت الظروف وارتفعت الموانع الخارجيَّة فإنه يقوم بالعمل المناسب لذلك ، إلّا أنـه في حالة وجود ميول متعدِّدة ولم يتيسَّر لـه إشباعهـا جميعاً ، فإنه يقع التزاحم لا محـالة ، وعنـدئذ تسيـطر ذات الجاذبيـة الكبـرى على النفس لتقـوم بـإشبـاعهـا أوَّلاً . فهنـاك بعض الأطفـال الـذين يفضلون لعبهم على أكلهم ، أو الأمَّهـات الجـائعـات يقـدِّمن غـذاءهن لأطفـالهنّ ، أو الشبّـان الـذين يرجِّحون المطالعة على ما سواها ، أو الأتقياء الذين يفضِّلون العبادة على النوم ، وكذلك الجندي المضحِّي في سبيل الله براحته وراحة عياله .

وفي مثـل هـذه المجـالات تبـدو القيمـة الحقيقيَّـة

للإنسان ، وتظهر استعدادته الخفيَّة ، وتصل سعادته أو شقاؤه إلى حدّ الفعليّة والتحقُّق . والـواقع أنّ حكمـة خلق الإنسان في عـالم من التزاحمـات والأمور المتضـادَّة تكمن في هـذا المعنى ، وكمـا أشرنـا إلى ذلك مكـرَّراً ، وهنا يُـطرح هـذا التساؤل :

هل للإنســان أن يكون مجـرَّد متفرِّج في عـالم تزاحم الميـول فمتى ما تغلَّب ميـل ما بمقتضى العـوامل الـطبيعيَّـة والاجتماعيَّة سار خلفه ؟ أم كـان عليه أن يمتلك زمـام الأمر ويكون له ـ عبر نشاطه الفكريِّ والإرادي ـ دور الموجِّه المعيِّن للمسير ، حتى أنه يقوم أحياناً بالإمتنـاع عن إشباع حـاجاتـه الطبيعيَّة ؟ إنه في الحالة الأولى سوف يسلِّم الأمر طائعاً أعمى أبكم للغرائز ، تمـاماً ، كمـا يسلِّم نفسه أحيـاناً للعـاصفة أو السيـل ، ويستقيل من إنسـانيته ، ويهمـل القوى الإنسـانيـة الخـاصَّـة . إنَّ هــذه الحـالـة تُـدعى بـالتعبيـر القــرآني بـ (الغفلة) .

الغفلة التي تدع الإنسان يسفُّ حتى يتنـزَّل عن مراتب الحيوان :

﴿ أولَئِـكَ كـالأنعـامِ بَـلْ هُمْ أضَـلُّ أولئـكَ هُـمُ

الغافِلُون ﴾[٩٩] .

أمّا في الحالة الثانية فيُطرح تساؤل آخر عن المعيار الذي به يرجِّح الإنسان بعض حوائجه ومتطلّباته على الأخرى ، ولأنّ هذا السؤال يشمل الدين أيضاً وجب أن يُجاب عنه بجواب ، بغضّ بالنظر عن المقاييس التعبُّدية .

ويمكن الإجابة عن السؤال الآنف بثلاثة أجوبة :

الأول : مقياس الأكثريَّة في اللَّذة ، فمتى كان عملٌ ما أكثر لذَّة انتخبناه عند التزاحم ، ومن الطبيعيِّ أنه لا يمكن جعل الملاك هنا اللذَّة الفعليَّة ، فقد تكون لعمل ما لذَّة فعليَّة ، لكنّها مشفوعة بعد ذلك بألم شديد ، علاوة على أنه من الممكن أن لا نكون قد ذقنا ـ من قبل ـ لذَّة بعض الأعمال حتى نقارنها مع غيرها ، فالسبيل الصحيح لتشخيص الألذِّ هو : (معرفة حقيقة اللَّذة وملاكها) ثمَّ نعمل على معرفة الألذَّ من خلال المقارنة والحساب العقلي ، ونحن قد قمنا من قبلُ بمثل هذا الحساب لهذه النتيجة وهي : أنَّ لذَّة القرب إلى الله لا تَعْدِلُها لذَّة ، ولا تبلغها رغبة :

﴿ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[١٠٠] .

---

(٩٩) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(١٠٠) سورة طه ، الآية : ٧٣ .

الثاني : أن نقارن بين الغرائز على أساس غاياتها ، ثمَّ نعمل على ترجيح الأفضل غايةً ، وقد قلنا من قبل إن للغرائز شعبتين :

الأولى : حفظ الوجود .

والثانية : تحصيل الكمال .

وغاية الشعبة الأولى بقاء الإنسان في هذا العالم لكي يطوي طريق تكامله . فمثلاً غاية الأكل والشرب ؛ تأمين الحاجات البدنيَّة للإبقاء على الحياة الدنيوية ، وغاية غريزة الدفاع ؛ الصيانة من الأخطار لإدامة الحياة ، وغاية الغريزة الجنسيَّة والعواطف العائليَّة والإجتماعيَّة هي ؛ بقاء النوع الإنساني ، إلّا أنّ غاية الفرع الثاني غاية لا متناهية وخالدة ، ومن الواضح أنها الغاية الأسمى والأبقى :

﴿ وَالآخِرَةُ خَيرٌ وَأبْقى ﴾[101] .

الثالث : إن غرائز الشعبة الأولى لها ـ بالطبع ـ جانب مقدَّمي ، لأنّ دورها هو تهيئة الأرضيَّة المناسبة ، وتحقيق إمكانات التكامل ، في حين أنّ الشعبة الثانية تمتلك أصالة بالنسبة للأُولى . ومن الواضح أنَّ قيمة المقدَّمة بقيمة ذي المقدمة ، ولا يمكن استبدال هذا بتلك .

---

(١٠١) سورة الأعلى ، الآية : ١٧ .

وبعبارة أُخرى :

إنّ غرائز الشعبة الأولى ليست لها أيَّة حاكميَّة بالنسبة لغرائز الشعبة الثانية ، وإنَّما لكلٍّ منها حركة خاصَّة بها ، إلاّ أنّ غرائز طلب الكمال غالبة وحاكمة على سائر الغرائز ، ذلك لأنَّ مقتضاها تعبئة كلِّ الطاقات في سبيل التكامل ، وعليه ، فيجب أن نعدِّها حاكمة ـ عملياً ـ ونجعلها معياراً لتحديد وتوجيه سائر المتطلَّبات . ومن البحوث السابقة عرفنا أنّ الكمال النهائي للإنسان والذي يجب أن تعبَّأ كلُّ الطاقات للوصول إليه هو القرب إلى الله تعالى :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾[١٠٢] .

النتيجة النهائية :

علمنا أنّ الإنسان يجب أن لا يكون مجرَّد متفرِّج في قبال العوامل الطبيعية والإجتماعيَّة والتضادِّ بينها ، وإنَّما عليه أن يمتلك دور الموجِّه المستفيد من القوى الإنسانيَّة الخاصَّة ، وأن يقوم ـ عبر نشاطاته الإراديَّة الواعية ـ بتحريك كلِّ الطاقات في المسير الصحيح ، وتوجيهها نحو الهدف الاصليِّ والكمال النهائي .

ولا شك في أنَّ احدىٰ هذه الطاقات الإنسانية التي

(١٠٢) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .

يمكنها أن تقود الإنسان لتحقّق هذا السعي الموجّه هـو القوَّة العقليَّة ، ولتقويتها الأثر المهمُّ في السير التكامليِّ للإنسان ، وحتى أن سقـراط اعتبـر أصـل الفضيلة هـو العقـل والعلم والحكمة (طبق التعبيرات المختلفة المنقولـة عنه) ، إلاّ أن أرسطو أشكل عليه بأنّ الإنسان الذي يمتلك علماً وحكمة ولا يعمـل بهما ليس واجـداً للفضائـل الأخلاقيَّـة ولـذا لا يمكن اعتبارهما أصل كلِّ الفضائل .

ونحن مع قبولنا لهذا الإشكال نضيف أنَّ عمل القـوىٰ الإدراكيَّة ليس البعث والتحريك ، بل وحتى الهدايات الإلهيَّة السماويَّة والأنوار فوق العقليَّة ـ أيضاً ـ لا تستطيع بنفسهـا أن تحـرِّك الإرادة ، ولا يمكنها أن تضمن وصـول الإنسـان إلى الكمال المطلوب :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنها فَأتبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوينَ * وَلَوْ شِئنا لَرَفعناهُ بِها ولكنَّهُ أخلَدَ إلى الأرضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ . . . ﴾(١٠٣) .

والشـرط الكـافي للسعـادة هـو سيـطرة المتـطلّبـات السامية ، والعبوديَّة لله ، وتقهقـر النزعـات المنحطَّة النفسيَّـة والشيطانيَّة ، ولكنّا نؤكِّد ـ في الوقت نفسه ـ أنّ القوَّة الإنسانية

---

(١٠٣) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٧٥ و١٧٦ .

المفكِّرة لها دورها المهمُ جدّاً في تـوجيه الإرادة ، وإنّ هـذه القـوَّة هي نفسها التي تسـاعدنـا في تهيئة مقـدَّمات الإختيـار والتنظيم والتوجيه لها ، وهذه البحوث هي نماذج من آثارها . وعلى هـذا يجب علينا دائمـاً أن نشخِّص سبيلنـا ، في ظـلٍّ هدايات العقل ، ونهيّىء أنفسنا لتقبُّل الأنوار الإلٰهيَّة .

إن قوَّة العقل له أهمِّية كبرى لتشخيص الهدف ومعرفة المسير الأصلي ، إلاّ أنها لا تكفي لمعرفة جـزئيات الـطريق والـطروح الدقيقـة ، ومن هنا نحتـاج إلى الوحي والإستعـانة بنظمه الشاملة .

فتقويةُ التصوُّر الديني توسعةَ الوعي النابع من المنابـع الـدينيَّة الأصيلة أمـر ضروريٌّ جـداً ، كما أنَّ تقـوية الإدراك الفطريِّ بواسطة التوجّهات القلبيَّة والتمرُّس في مجال تركيزها عبر الأشكال المختلفة للعبادات عامل مهمٌّ جداً ، بل هو أشدُّ العـوامل تـأثيـراً وأصـالـة لتحقيق التكـامـل الحقيقيِّ ، ومن الواضح أنَّ معرفة هذه الحقائق كلّها إنّما كانت ببركـة العقل والتفكير العقلاني .

إلاّ أنَّ المهم في القسم الأخير من هذا البحث هو ؛ أن نعلم كيف نـوفـر المقـدَّمـات لإثـارة المتـطلَّبـات الإنسـانيـة السامية ، والميل للوصول إلى مقـام القرب الإلهي ، وكيـف نقوِّي هذه المتطلَّبات والميول ونغلِّبها على غيرها .

ولقد سلف منّا القول أنّ توعية ميل مـا وإثارتـه قد يتمُّ ـ أحياناً ـ اثر بعض التفاعلات الداخلية للبدن ، كمـا قد تتمُّ على أثر التماسِّ مع المواد الخارجيَّة ، كما قد تتمُّ ثالثة نتيجة النشاطات النفسيَّة التي تتحرَّك هي بدورها بواسطة المحرّكات الخـارجيَّة ، وإننـا نجد الغـرائز من شعبـة حفظ الوجـود تثار ـ عادة ـ بواسطة العاملين الأوَّلَين . أمّا حكمة كـون إثارتهمـا غير منوطة بالفعّاليات الشعوريَّة للإنسان فتكمن في أنّ الحياة الفرديَّة والاجتماعيَّة لـلإنسان في هـذا العالم منـوطة مبـاشرة بفاعليَّة هذه الغرائز .

فـإذا كان عملهـا منوطـاً بإرادة الإنســان واختياره فقـد تتعطَّل ، على أثر غفلته أو أفكاره المغلوطة ، وحينئذ تنعـدم الأرضيَّة المساعدة للسير التكاملي ، ولكنَّه بعد توفُر الأرضيَّة التكـامليَّة المسـاعدة يصـل الدور للنشـاط الإراديِّ الإنسانيِّ باتجاه الكمال . ولأنّ التكامل الحقيقي للإنسان إراديٌّ فكلّما كانت دائرة الإختيار الحرِّ أوسع كان إمكان التكامـل الإراديِّ أشد وأكثر . ومن هنا ، فإنّ الشعبة الثانية من الغرائز ـ وحتى يتم إيقاظها وتعيين مسيرة إشباعهـا ـ أوكِلت إلى الإنسان إلى حـدّ كبير ، لكي يـوفّر المقـدّمات الـلازمـة لتحقيق النتـائـج التكاملية .

فعندما تصبح حاجة ما فعليّة في الإنسان ، وتشبع هذه

الحاجة ، وتحصل لذة أو يرتفع ألم ؛ تحصل النفس على توجّه اكثر إليها . وفي المرحلة الثانية تظهر تلك الحاجة بشكل أشدّ إلحاحاً وهكذا ، وعلى أثر التكرار تأنس لها النفس وتتعلّق بالموضوع الخارجي ، الذي يتعلّق به الفعل ، ويشكل بنحو ما وسيلة لإشباع تلك الحاجة ، وفي مثل هذه الحالة نقول إننا نحب الفعل الفلانيَّ أو الشيء الفلانيَّ أو الشخص الفلانيَّ ، ولازم حبنا توجُّه النفس المستمرُّ للمحبوب والقيام بالأعمال المتناسبة معه .

فإذا شئنا أن نمنح سيرنا الجهة الخاصَّة ، ونعبِّىء كلَّ قوانا في سبيل الوصول إلى هدف معيَّن ، كان علينا أن نسعى لتحقيق استمراريَّة توجُّه النفس للهدف وجهته ، وأُنسها به ، والتمركز في خط واحد ، مشروط بعدم التوجُّه إلى الجهة المخالفة ، وعدم الإلتفات إلى أيّ مطلب آخر استقلالاً ، بل تسخَّر كلُّ الغرائز في خدمة تحقيق الميل العالي والمتطلّب للكمال ، ويجعل إشباعها يتبع إشباع هذا الميل العالي ، والتوفيق في هذا العمل رهين البرنامج العمليِّ المشتمل على السعي الإيجابي والسلبي المعيّن ، في مجال تقوية الميل نحو الكمال وعبادة الله ، وأهمُّ المواد الإيجابيَّة في هذا البرنامج هي كما يلي :

١ ـ العبادة : وخصوصاً الصلوات الواجبة وأداؤها في

وقتها مع حضور قلبي وإخلاص كامل :

﴿ قَدْ أفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ * الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ ﴾[104] .

وعند التمكُن يجب أن نخصِّص مقداراً من أوقاتنا للتوجُّه القلبيِّ ، وذلك في وقت ومكان مناسبين :

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾[105] .

وإدامة هذا العمل توجب أُنس القلب بالله ، وتذوُّق لذّة المناجاة معه ، وعدم الإهتمام باللذات الماديَّة ، ويجب أن لا ننسى الإنفاق والإيثار وهما أفضل الوسائل للإعراض عن اللذات الدنيوية ، والزهد فيها ، وتطهير النفس من درن الدنيا .

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ ﴾[106] .

﴿ لَن تَنالُوا البِرَّ حَتىٰ تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُونَ ﴾[107] .

---

(١٠٤) سورة المؤمنون ، الآيتان : ١ و٢ .

(١٠٥) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥

(١٠٦) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

(١٠٧) سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ .

﴿ خُــذْ مِنْ أمْـوالِهِمْ صَــدَقَـةً تُــطَهْــرُهُـمْ وتُــزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[108] .

إنّ الصلاة والإنفاق يكمل بعضهما بعضاً ، وربما كان هذا هو سر تقارنهما غالباً في القرآن الكريم :

﴿ وَأوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمتُ حَيّاً ﴾[109] .

٢ ـ ولنخصِّص كلَّ يوم مقـداراً من أوقاتنـا للتفكير في صفـات الله ، والآيـات الإلهيَّـة ، وهـدف الخلقـة ، والنِعم المتـوالية الـلانهائيـة له تعـالى وكذلـك في تشخيص السبيل الصحيـح ، وطول المسيـر ، وقلَة الوقت والـطاقـة ، وكثـرة الموانع ، وسخف الأهداف الدنيويَّة المحدودة ، وكون لذَاتها مشوبة ومسبوقة وملحوقة بالآلام والمصائب ، وكذلك في كلِّ الأشياء التي تشجِّع الإنسان في طيٍّ طريق العبوديَّة ، وتمنعه من عبادة الذات والدنيا :

﴿ إنّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقومٍ يَتفكرون ﴾[110]

٣ ـ وليكن لنا برنامج يومي لقراءة القرآن الكريم بتوجُّه

---

(١٠٨) سورة التوبة ، الآية : ١٠٣ .
(١٠٩) سورة مريم ، الآية : ٣١ .
(١١٠) سورة الرعد ، الآية : ٣

وتـدبُّر وإمعـان ، ومطالعـة الـروايـات والمـواعظ والكلمـات الملأى بالحكمة ، والأحكام الفقهية والتعليمات الأخلاقية ، ليبقى الهدف وسبيله الصحيح ماثلاً في أعماقنا ، ولتتمَّ توعية حسّ طلب الكمال وتذكيره دائماً :

﴿ وَلَقد يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر ﴾[111] .

أما المواد السلبية في هذا البرنامج الحياتي فأهمها مـا يلي :

١ ـ عدم الإسراف في إشبـاع اللذات الماديَّـة ، التي تـوجب أُنس النفس باللذات الحيـوانية ، وإنمـا نسعى لكي يكـون الداعي الى الاستفـادة من النعم الدنيـويـة هـو تهيئـة المقدمات للسير ، أي السلامة والقوة والنشاط البدني للعبادة والشكـر ، ويشكـل الصـوم وعـدم الشبـع في الأكـل ، وقلة الكـلام ، وقلة النوم ، مـع رعايـة الإعتدال وحفظ السـلامـة أجزاء لهذه المادة :

﴿ والَّذينَ هُمْ عنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[112] .

﴿ وأنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لكُمْ ﴾[113] .

---

(١١١) سورة القمر ، الآيات : ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠ .

(١١٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٣ .

(١١٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٤ .

٢ ـ السيطرة على القوى الحسيَّة والخياليَّة التي يمكنها أن تكون ـ بالتداعي ـ منشأً للميول الحيوانية ، خصوصاً منع العين والأذن من رؤية المناظر الشهوانية ، وسماع الأصوات الباطلة الملهية ـ وبشكل عام ـ صرف النظر عن كلٍّ ما لا يرضى به الله :

﴿ انَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسؤولاً ﴾(١١٤) .

٣ ـ الإحتفاظ بالتفكير عن مهاوي الإنحراف الفكري ، والإمتناع عن المطالعة والبحث في الشبهات التي لا نقدر على الجواب عليها ، وإذا ما طُرحت لدينا مثل هذه الشبهات أو سمعناها وجب علينا السعي لتحصيل الجواب المقنع عليها :

﴿ وقَدْ نزَّلَ عَليكُم في الكتابِ أنْ إذا سَمِعْتُم آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها ويُستَهزأ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتى يَخُوضُوا في حديثٍ غَيرِهِ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ إنَّ اللهَ جامِعُ المُنافِقينَ والكافِرينَ في جهنَّمَ جَميعاً ﴾(١١٥) .

---

(١١٤) سورة الإسراء ، الآية ١٣٦ .

(١١٥) سورة النساء ، الآية ١٤٠ .

وعن أبي جعفر الباقر(ع) :

(من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق يؤدي عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان)[116] .

والنقطة التي يجب أن لا نغفل عنها عند تنظيم هذا البرنامج وتنفيذه هي : رعاية أصل التدرُّج والإعتدال ، بمعنى عدم تحميل أنفسنا ما لا تتحمَّله من ضغط ، إذ أنَّ ذلك ـ بالإضافة الى انه يؤدّي الى العصيان وعدم الطاعة من قبل النفس ـ يمكن أن يورد علينا أضراراً بدنيَّة أو روحيَّة لا تُجبَر ، وعلى هذا فمن الحسن التشاور مع شخص واع خبير قابل للإعتماد في وضع مثل هذا البرنامج .

وكذلك لا ينبغي التماهل في إجراء البرنامج الدقيق والتماس الأعذار ، ذلك لأنَّ أثر هذا البرنامج إنما يتوقف على إستدامة تنفيذه ، وعلى أيِّ حال ، يجب أن نتوكَّل على الله ونلتمس منه العون والتوفيق .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

---

(١١٦) وسائل الشيعة : أبواب صفات القاضي ج١٨ ، ص٩١ ، باب١٠ ، ح٩ و١٣ .

الفهرس